
الأدب الكبير
عبد الله بن المقفع

الأدب الكبير

تأليف
عبد الله بن المقفع

تحقيق
محمد حسن المرصفي



الأدب الكبير

عبد الله بن المقفع

رقم إيداع ١٤٢٤٢ / ٢٠١٤
تدمك: ٧ ٩٩٥ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: محمد الطوبجي.

المحتويات

مقدمة المُحقق

بسم الله الرحمن الرحيم نَستَفتح القول، وبحمده نَستمنِحه الحَوْل والطَّوْل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

أمَّا بعدُ، فهذه كلمات في «الحِكْمة المَدنيَّة»[1] تلقَّفها الناسُ أجيالًا، وتناقلوها أحقابًا، وفُتِن بها الكاتبُ الأديب والناقد الأريب؛ إذ كانت تَدْبيجَ يَراعة زَعيم المُنشئين وقدوة الكاتبين «عبد الله بن المقفَّع» ذلك الذي دان له النُّقاد بالبراعة في تحقيق الحِكمة البالغة، وتحبير الموعظة النافعة.

[1] اعتاد الأوَّلون من العرب واليونان أنْ يقسِّموا الفلسفة أربعة أقسام؛ أولها: الفلسفة الطبعيَّة، أو العلم الأدنَى، ويبحثون في هذا القسم عن الأجسام الطبعية وما ينالها من الصفات. الثاني: الفلسفة الرياضية، أو العلم الأوسط، ويبحثون في هذا القسم عن الأشكال والسطوح والعدد، وما لها من الخواص وما بينها من النسب. الثالث: الفلسفة الإلهية، أو العلم الأعلى، أو العلم الكُلِّي، ويبحثون فيه عن الإله وصفاته، وعن الوجود وما يشابهه من الأمور التي تعمُّ الكون كله. الرابع: الفلسفة الأدبية، أو العملية، وهي عندهم ثلاثة أقسام؛ أولها: الأخلاق، وفيه تدبير نفس الفرد. الثاني: تدبير المنزل، وفيه سياسة الأسرة. الثالث: السياسة، أو الفلسفة المدنية، وفيه تدبير الأمَّة أو المدينة، وبيان ما بين أفرادهما من الروابط والأواصر، والقواعد التي ينبغي أنْ يقوم عليها الاجتماع. وهذا النوع بطبيعته منقسم إلى نوعين، فإن البحث إمَّا أنْ يتصل بما بين الأفراد أنفسهم من الصلات، أو بما بينهم وبين الحكومة منها.

وإذ كان كتاب «ابن المقفع» لا يتجاوز في جميع حِكمه وقضاياه هذين النوعين، فلا جرم كان اسم «الحكمة المدنية» أوفق الأسماء له، وأدلَّها عليه.

اسم الكتاب

وسموها «بالدُّرَّة اليتيمة» مرَّة، ثم «بالأدب الكبير» أخرى، ولها من كلتا السِّمَتين أوفرُ نصيب، فليس لاختلافهم إذن فائدةٌ؛ يُعدُّ الإعراض عنها ضربًا من البُخل على القارئ بتحقيق الاسم، أو نوعًا من التقصير في تمحيص العُنوان.

بل إنَّ أقلَّ ما يُفيده هذا الاختلاف إنما هو تَقْوية حُجَّة القائلين بأن التسمية لم تكن من قِبَل «عبد الله» نفسه، وإنما هي مِن عَمَل مَن جاء بعده، وهو الذي نختاره ونطمئن إليه.

معاني الكتاب

وأمَّا ما جاء بهذا السِّفْر من الخواطر، وإنْ لم تختص بفئة دون فئة، ولم تُقْصَر على إقليم دون إقليم، فإنا نراها منقولةً كلها عن الفُرْس كما ذهب إليه «الباقِلَّاني» في كتابه «الإعجاز»، وإلَّا فلِلنَّقْل فيها صِبغة واضحة وأثرٌ جلي.

وسواء أصحَّ نقلُها عن قومه، أم كانت مما دلته عليه بصيرته، وأوحته إليه قريحته، فإنها للناس مصدرُ خير كبير وفضل كثير.

العناية بطبع الكتاب

ولئن عرفنا لهذا السِّفر فضله وأدركنا خطره، فقد عرفه غيرنا من قبل، فعُنِي بطبعه ونشره؛ رغبةً في الآداب وحرصًا على آثار الأولين من نوابغ الأدباء وأفذاذ الحكماء.

غير أنَّ الذي نُشر من هذا المطبوع بين الناس لم يمنعنا أنْ نُلقي هذا الدَّلْو بين الدِّلاء، فقد رأيناه بين قليلِ الثمن — ولكنَّه رديء الطبع — لا يُغني الطالبَ غَناءً ولا يَنال من نفسه رِضاء.

وبين جيد الطبع محكم الوضع — ولكنه كثير الثمن — قد حاز رضًى من نظارة المعارف، ونال قَبولًا من جُمهور القارئين.

وكتابٌ هذه خصائصه خليقٌ بما ظفر به من حبٍّ، حريٌّ بما حظي لديه من ثقة، محتاجٌ إلى أنْ تعم الفائدة منه ويكثر الانتفاع به بين الأغنياء والمُتْربين.

فضل زكي باشا على الكتاب

ولا سيِّما أنه يدٌ لذلك البحَّاثة النشيط «الأستاذ أحمد زكي باشا، كاتب أسرار مجلس النظَّار».

ذلك الذي عُني بتجويد طبعه، وإصلاح لفظه، وشرح غريبه، وتحرير معانيه، وهو فوق هذا كله لم يخلُ من كثير الخطأ والتصحيف، ومن جمٍّ السهو والتحريف، متجاوزًا عنايةً ما كان أشدَّهَا! وحرصًا ما كان أيقظه!

تقدير عمل الباشا في الكتاب

وإنا لنظلِمُ «سعادة الباشا» إذا لم يَنل منَّا اعترافًا له بالنَّصَّب في سبيل البحث، وبالعَناء والمشقات وراء التحقيق.

فلقد عرفناه يجوب القِفار، ويقطع البحار، ويسهر الليل ويكِد النهار؛ سعيًا وراء أمانيه التي لم تكن — والحمدُ لله — إلَّا عِلميَّة في محض إخلاص.

وحَسْبُه ما أتى به من مكاتب الشرق والغرب، وشَرَعَت نظارة المعارف في طبعه منذ حين.

ذلك حقٌّ لا مرية فيه، كما أنه لا مَسحة للمراءاة عليه، وكيف؟ ولم أعلم من ذوي المعرفة والدِّراية، ولا من أهل الخبرة والبصيرة من أوتي صبره على البحث، وجَلَدَه في التنقيب، ولا من قرَّب للعلم هذه القرابين من الوقت والنفس والمال.

لهذا البحَّاثة المحقق شديدُ الرغبة في التغيير والتبديل وفي المحو والإثبات، قلَّ أنْ يُجاريه فيها غيره ممن نَهَج هذي الطريق في خدمة العلم وآلِه؛ حتى لقد يَخْرُج الكتاب من بين يديه كتابين، والفنُّ فنين، ولا لومَ عليه في ذلك ولا تَثْريب، فإن للبَحث نَزْعةً لا تتَّفق والاختصار في سبيل، ولا تلتئم مع الاقتصاد في طريق.

على أنَّ أيسر ما نستنبطه من هذه الأعمال إنما هو خَصْلة من أجمل الخصال في عظماء الرجال؛ تلك أنَّ نفسَه طلَّاعة إلى الغاية، نزَّاعة إلى الكمال، «وإنْ كان الكمال لله وحده لا يشاطره إياه نِدٌّ، ولا ينازعه فيه شريك».

لذلك تراه في نسخته[٢] التي نَشَرها لم يقتصر في جدول الخطأ والصواب على ما ليس له مُتَنفسٌ من تأويل، ولا مُتَسرَّب من تخريج، بل تراه يترك الشكَّ إلى اليقين، ويجتاز الفصيحَ إلى الأفصح؛ شأن المستشرقين في تحقيق مباحثهم، والمجتهدين في تمحيص آرائهم.

وليس أَدَلَّ على ذلك من هذا الجدول الذي أثبت فيه تحقيقًا ونفى تأويلًا، وأتى بآية ونسخ آية، حتى بلغت صفحات الخطأ والصواب عشرًا،[٣] حاشا الاستدراكاتِ، فقد ابتنى لها فصلًا[٤] آخر ذيل به الكتاب الذي لم يملأ بعدُ «ستة أفرخ من القطع الصغير».

كل هذا ليس بمنكَرٍ على أحد، ولا مأخوذ به إنسان، مادمنا نلجأ بعد ذلك إلى حِرْزٍ حريز من صواب الرأي ورُكْنٍ شديدٍ من صحيح القول.

وإنما الذي إيَّاه نعيب وله نسْتَزْري ألَّا يضْمَن الرجلُ ثقته بنفسه، أو أنْ يلوح له من عمله ما يُزَعْزع هذه الثقة — إنْ كانت — ثم لا يسعى لها سعيها، فيتلمَّسها في المظانِّ، ويفتقدها في آثار الناس.

نذكر الآن بعضَ ما ورد في جدول الخطأ والصواب مثلًا لذلك؛ فقد جاء بصفحة ١٨ ضبطٌ لِلَفْظ «حَرَصوا» بكسر الراء، ثم وردت بالجَدْول في مَصافِّ الخطأ، قال: والصواب فتحُها، وهذا حسَنٌ كلَّ الحسن؛ لأن كسرَ الراء لغة أو لُغَيَّة، والفتح — لا شكَّ — أفصح، فنحن نوافقه على هذا ونشايعه فيه، ونشكره إياه؛ لأنه دأب في سبيل الكمال، كما أنه عَهْدٌ عليه وميثاق منه، برغبته عن الفصيح إلى الأفصح، ورجوعه عن الصالح إلى الأصلح.

وإنما الذي لا نَرْضاه «لسعادة الباشا» ولا نُقرُّه عليه ما جاء بصفحة ٧٥، فقد ضبط فيها لفظ «يكسِبُه» ثلاثيًّا في هذه الجملة: «وإنَّ الشريرَ يَكسِبُكَ الأعداءَ.» ثم ورد في الجدول مُخَطأً، فأمَّا أننا لا نرضاه له ولا نُقِره عليه؛ فلأن التعديل فيه معكوس مخلوط، والتحرير مختل معتل، ولو وُفِّق «سعادة الباشا» لارتضى ما أقرَّته المصادفة، ولاكتفى بما خدمَتْه به محاسنُ الموافقة.

ذلك أنَّ «كَسَب» الثلاثي يجتاز إلى مفعولين بنفسه، غيرَ محتاج في تعديته إلى حرف ولا صيغة، فنقول: «كَسَبنا الله الخير.» و«كَسَبنا الاجتهاد حسنَ الصواب.»

---

[٢] وهي الطبعة الأولى التي ظهرت في سنة ١٣٣١هـ/١٩١٢م، ولم يظهر غيرها بقلمه حتى الآن.

[٣] من صفحة ١٤٠ إلى ١٤٩.

[٤] من صفحة ١٣٣ إلى ١٣٨.

وعلى هذا اتفق جُمهورُ اللغويين حتى قالوا — أو كادوا — بلسان الإجماع: ليس في اللغة فعل مهموز من «كسب» اللهم إلَّا ابن الأعرابي الذي أجاز الرباعيَّ مع شدة إنكار اللغويين له وزِرايتهم عليه، وأنشد: «فأكسبني مالًا وأكسبته حمدًا.» وإن وافقه «ابن يعقوب» وذكره في صورة تُشعر بضعفه.

إذن فالثلاثي هو الذي تعرفه اللغة، وما داخل الشك لُغَويًّا فيه، بخلاف الرُّباعي الذي أجمعوا على إنكاره — كما قدمنا — وإليه يُشير «أحمد بن يحيى» بقوله: كلُّهم يقول كَسَب إلَّا «ابن الأعرابي» فيقول أكسب.

عتبنا على الباشا في احتكار الكتاب

بقي أمامنا الآن شيء عَرَض في مقدمة كتابه، ولسنا نريد أنْ نمرَّ به مرَّ الكرام — كما يقول الكاتبون — فليست هذه بمنزلة الأستاذ، وإنما هو من أول الذين يجب أنْ يُغني جمهور الناس بكل ما نطق به لسانُه أو جرى به قلمه، ويُحاسبوه عليه حسابًا ولو يسيرًا.

وإنما نريد أنْ نشير إليه ونعتب على «الأستاذ» فيه؛ احتفالًا بشأنه وتنزيهًا لقلمه عن مثل الذي سقط فيه، وجديرٌ بنا قبل ذلك أنْ نقف بالقارئ على لفظه الذي جاد به بَنانُه، وجاش به جَنَانه. قال بعد كلمة وجيزة في أنه أهدى إلى جمعية العروة الوثقى كتابين، هما جرثومة الأدب ومن خير ما ظهر بلسان العرب:

> تجلَّى «الأدب الصغير» منذ عام في ثوب قَشِيب بديع النظام، فحيَّاه أُمراء الفصاحة واستبشر به أهل الرأي وأرباب الحصافة، ونال عند الفريقين مكانته الجدير بها من التجلَّة والإكرام، نال من الرواج ما جعل بعض البُله المتطفلين يقلده بلا خجل، وفاته «أنَّ التكحل غير الكَحَل».
>
> لعمري! إنَّ هذا التقليد لا يسوءنا مطلقًا، فالعاجز «المزوِّر» إنما «يتسكع» في تقليد البضاعة المقبولة؛ ليكسب من وراء جريرته السحت والحرام!
>
> لو أنَّ الأغرار المغرورين «يتقدمون إلينا»[٥] «لنُهديهم شيئًا»[٦] يجعل لهم ذكرًا محمودًا، ولنهديهم السبيل الذي يكون لهم في نهايته مقامًا كريمًا؛ لفعلنا.

[٥] مما يؤسف عليه أنَّ الاستعمال لا يرضى ذلك؛ فإن «تقدم إليه» لا يُستعمَل إلَّا بمعنى «أمره»، ولا نظنُّ الباشا قد قصد إلى ذلك سبيلًا.

[٦] الصواب: لنهدي إليهم، أو نهدي لهم.

والله على ما نقول شهيد، ويَقِينُنا أيضًا أنهم إذا التمسوا من تلك «الجمعية» نوالًا من هذا الباب لما بخلتْ عليهم؛ لأن وظيفتها إسداء الخير ونفع الناس.

لكنَّ «الانحطاط» بلغ من بعض الذين «لا خلاق لهم» أنهم يؤثرون التدنِّي في الأخلاق والتدلِّي في الأعمال؛ لأن الرزق الحلال لا يُجديهم، والريح الطيبة تؤذيهم، فهم لا يبالون إذا ما تشبهوا «بالحيوينات»[٧] الحَلَمية أو النباتات الطفيلية، «وماذا نقول في الفضول، ولله في خلقه شئون؟»

على أنه مادام أهل الشهامة يتضافرون على رفع مستوى الأخلاق والارتقاء بها في سلَّم الكمال، فلا بُدَّ للفضيلة من التغلب على ذلك الصنف من الحيوان، فينقرض «إنْ شاء الله» من جثماننا الاجتماعي، تبعًا للناموس العمراني الدائم، وهو بقاء الأصلح والأنسب، فأمَّا الزبد فيذهب جفاء، وأمَّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

فأنت ترى أنَّ أولئك الذين نالهم «الباشا» بقلمه قد أحفظوه وأحرجوا صَدْرَه؛ حتى لم يستطع أنْ يكظم غيظه أو يكُفَّ غربه، أو يملكَ نفسه عن الوقوع فيما وقع فيه مما لا يحسن به، ولا يصحُّ أنْ يُنْسب إليه.

ولَعَمري لقد وقَف الباشا نفسَه بمنزلة هي إلى الخطأ أدنى منها إلى الصواب، فقد كان مقامُ خصومه خليقًا أنْ يَعْصِمَهم من لسانه «إنْ كانوا كبارًا»، أو أنْ يعصم لسانه منهم «إنْ كانوا صغارًا»، وما كان للباشا — وهو الحريص على إذاعة العلم وفضله بين الناس المَعْنيِّ بإشاعة الأدب ونفعه في الجمهور — أنْ يميل إلى احتكار كتاب نشره وجَدَّ في طبعه، وإنما الجديرُ به المرضيُّ منه أنْ يستبشر حين يرى تداوُلَ الناس له، وتهالكهم عليه.

عنايتنا بالكتاب

وها نحن أولاء قد عَمدنا إلى الكتاب، فأعدنا طبعه، وحقَّقنا لفظه، وشرحنا غريبه، ورتَّبنا معناه، وخفضنا ثمنه.

فجعلناه مقالتين كما كان يصنع قدماء الحكماء بكتبهم، وجعلنا الأولى في السلطان منقسمة إلى بابين؛ الأولُ: في آدابه والثاني: في صحبته، وجعلنا الثانية لآداب الأصدقاء

---

[٧] الصواب: «بالحييوانات»؛ لأن التصغير هنا يجب أنْ يكون في المفرد لا في الجمع.

شاملة، ولِما يحسن بهم من الخلال حاوية، ثم سمونا إلى معاني الكتاب فقسمناها مطالب، وجعلنا لكل مطلب عنوانًا، ووضعنا بهذه العنوانات ثبتًا (فهرسًا) يُرْجَع في البحث إليه، ويُعتمد في التنقيب عليه؛ ليكون متناوَله على التلميذ أسهل، وجَنَاه إلى الطالب أدنى.

إذ كانت هذه الطريقة لنفوس التلاميذ آلف، ولطباعهم ألصق، وإذ كانوا لا يُحبُّون كتابًا ولا يحرصون على النظر فيه إلَّا إذا ازدان بها، وتَحلَّى بجمالها.

وقد جمعنا من نسخ الكتاب المنشورة والمخطوطة ما ائتلف منها وما اختلف، فلاءمنا بين متنافرها، ووقفنا بين متمانِعها، واستخرجنا منه نسخة ما نرى إلَّا أنها أحسن مظهر للوفاق، وأجمل معرض للانسجام.

ورأينا أنَّ هذه النسخ لم تتفق في ترتيب المعاني بعضها إلى بعض، ولم نَعْرف لترتيب بعينه روايةً صحيحةً عن «ابن المقفع»؛ فآثرنا أنْ نَبْذُل من أنفسنا في ذلك جَهدًا، وأنْ نقر كل معنًى مما قبله وما بعده في نِصابه، ونضعه في المكان المقسوم له؛ حتى تأخذَ فصول الكتاب بعضها بحُجْزَة بعض، فلا يقع القارئ في سوء الانتقال.

ولسنا ندعي لأنفسنا العِصمة من الخطأ، ولا ننتحل لها البراءة من الزلل، ولا نُظهرها مظهرَ الضعيف المتردد، ولا الشاك المرتاب.

وإنما نُعلن أنا قد بذَلْنا في هذا الكتاب عملًا ما، أرحَبَ ما نكونُ صدرًا لقبول ما يوجَّه إلينا من نقد، وأطيب ما نكون نفسًا باتباع ما يُهدى إلينا من إرشاد، والله ولي التوفيق.

محمد حسن نائل المرصفي

القاهرة غرة الحجة سنة ١٣٣١ هجرية

قال عبد الله بن المقفع في فضل الأقدمين

إنَّا وجدنا الناسَ قبلنا كانوا أعظمَ أجسامًا، وأوفرَ[١] مع أجسامهم أحلامًا،[٢] وأشدَّ قوةً، وأحسنَ بقوَّتهم للأمور إتقانًا، وأطولَ أعمارًا، وأفضلَ بأعمارهم للأشياء اختبارًا.[٣]

فكان صاحبُ الدِّين منهم أبلغَ[٤] في أمر الدِّين علمًا وعملًا من صاحب الدِّين منَّا، وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل.

ووجدْناهم لم يرضوا بما فازُوا به من الفضل الذي قُسِم لأنفسهم حتى أشركونا معهم فيما أدركوا من علم الأولى والآخرة، فكتبوا به الكُتب الباقية، وضربوا الأمثال الشافية، وكفَوْنَا به مئونة[٥] التجارب والفِطَن.

---

[١] أكثر.

[٢] الأحلام: جمع حِلم بالكسر وهو العقل، ويروى: أجسادهم بدل أجسامهم.

[٣] يريد أنَّ طول أعمارهم وكثر ممارستهم، جعل اختبارهم للأشياء ووقوفهم على الحقائق أفضل من اختبارنا وأقرب منه إلى الصواب.

[٤] أي أكثر تمسكًا بالعلم وأشد حرصًا على العمل.

[٥] المئونة بالضم والفتح: المشقة والعناء، والتجارب بكسر الراء: جمع تجربة بكسرها أيضًا، وهي اختبار الشيء مرة بعد أخرى.

وبَلَغَ من اهتمامهم بذلك أنَّ الرجل منهم كان يُفتح له الباب من العلم، أو الكلمةُ من الصواب — وهو في البلد غير المأهول[٦] — فيكتبه على الصخور مبادرةً للأجل، وكراهيةً منه أنْ يَسْقُط[٧] ذلك عمَّن بعده.

فكان صَنِيعهم في ذلك صنيعَ الوالد الشفيق على ولده، الرحيم البرِّ بهم، الذي يجمع لهم الأموال والعُقَد،[٨] إرادةَ ألَّا تكون عليهم مئونة في الطلب، وخشيةَ عجزهم إنْ هم طلبوا.

فمُنتهى علم عالِمنا في هذا الزمان أنْ يأخذ من عِلمهم، وغاية إحسانِ مُحسننا أنْ يقتديَ بسِيرتهم.

وأحسنُ ما يصيب من الحديث محدِّثنا أنْ ينظر في كتبهم، فيكون كأنه إياهم يحاور،[٩] ومنهم يستمع، وآثارَهم يتَّبع، وعلى أفعالهم يحتذي، وبهم يقتدي.

غير أنَّ الذي نجد في كتبهم هو المنتخَل[١٠] من آرائهم، والمُنتقى من أحاديثهم.

ولم نجدهم غادروا[١١] شيئًا يجدُ واصفٌ بليغ في صفة له غايةً[١٢] لم يسبقوه إليها؛ لا في تعظيم لله — عزَّ وجلَّ — وترغيبٍ فيما عنده، ولا في تصغيرٍ للدنيا وتزهيد فيها،

---

[٦] أي الذي ليس فه أهل يسكنونه.

[٧] يقول: كان المتقدمون إذا ما عنتْ لأحدهم خاطرة أو سنحت لهم شاردة، بادروا بتدوينها على الصخور؛ خشاةَ أنْ يوافيهم الأجل فتسقط عمن بعدهم وتضيع على سواهم، ويروى: كراهية لأن يسقط.

[٨] العقد: جمع عقدة، وهي العقار ونحوه، وفسرها الأستاذ الشنقيطي بأنها النفائس من الأموال، ولو كان ذلك مرادًا للكاتب لغضَّ من مكانتها ذِكر الأموال قبلها.

[٩] إياهم: مفعول مقدم ليحاور، ومثله آثارهم مفعول ليتبع، والمحاورة: المناقشة، ضاق ذرع الكاتب من أهل عصره فوصفهم بألَّا نصيب لهم من الإبداع، ولا حظَّ من الابتكار، وليس لهم إلَّا أنْ يتلمسوا طريقًا لمتقدمهم فيطلبوه، أو مثالًا لهم فيحتذوه؛ بألفاظهم يعبرون وبآرائهم يفكرون كأنهم جميعًا في مجلس يتحاورون.

سقط من بعض النسخ قوله: «وعلى أفعالهم يحتذي، وبهم يقتدي.» ولكن هذا التركيب بأسلوب ابن المقفع ألصق.

[١٠] المختار: المنتقى، جاء في حرف الجر الداخل على آرائهم خُلْفٌ في بعض النسخ، فورد لفظ في بدل من، والذي ذكرناه أنسب.

[١١] غادروا: تركوا.

[١٢] ويروى: مقالًا لم يسبقوه إليه.

ولا في تحرير صنوف العلم، وتقسيم قِسَمِها،[١٣] وتجزئة أجزائها وتوضيح سُبُلِها وتبيين مآخذها، ولا في وجهٍ من وجوه الأدب وضُروب الأخلاق.[١٤]

فلم يبقَ في جليل الأمر ولا صغيره لقائل بعدهم مقال.

وقد بقيتْ أشياء من لطائف الأمور فيها مواضعُ لصغار[١٥] الفِطَن، مُشْتقةٌ من جسامِ حِكَم الأوَّلين وقولهم؛ فمن ذلك بعضُ ما أنا كاتبٌ في كتابي هذا من أبواب الأدب التي قد[١٦] يَحتاج إليها الناس.

مطلبٌ «في الحث على تعرف أصل العلم وفصله»

يا طالب العلم!

إنْ كنتَ نوعَ العلْم تريد[١٧] فاعرف الأصول والفصول؛ فإن كثيرًا من الناس يطلُبُون الفُصُول مع إضاعة الأصول، فلا يكون دَرَكهم[١٨] دَرَكًا، ومَن أحرز الأُصول[١٩] اكتفى بها عن الفصول، وإنْ أصاب الفصل بعد إحراز الأصل فهو أفضل.

فأصلُ الأمر في الدين أنْ تعتقد الإيمان على الصواب، وتجتنب الكبائر وتؤدِّي الفريضة، فالزم ذلك لزوم مَن لا غنًى له[٢٠] عنه طرفةَ عين، ومَن يعلمُ أنه إن حُرِمَه هلك، ثم إنْ قدرتَ على أنْ تُجاوزَ ذلك إلى التفقُّه في الدين والعبادة فهو أفضلُ وأكمل.

---

[١٣] ويروى: أقسامها.

[١٤] أصاب بعض النسخ سقط في الكلمات فورد: «ولا في وجوه الأدب …» وأمَّا الضروب فجمع ضرب بالفتح وهو الصِّنف.

[١٥] ويروى: لغوامض الفطن.

[١٦] ويروى بإسقاط «قد».

[١٧] نوع: مفعول لتريد، وقد سقطت جملة الشرط من بعض النسخ.

[١٨] الدرك محركة: إدراك الحاجة، يريد أنهم وإنْ حصلوا على بعض ما أَمَّلوا وأدركوا أثاره من علم، لم يكن حقيقًا أنْ يُسمَّى هذا الحصول إدراكًا للحاجة ولا وصولًا للغاية.

[١٩] حازها.

[٢٠] يقال: ما له عنه غنًى بالكسر ولا مغنًى ولا غُنية ولا غنيان مضمومتين، ويراد: ما له بد، والمعنى على هذا مستقيم لا غضاضة فيه، وأمَّا الغناء بالفتح ممدودًا فيستعمل ضد الفقر مثل المقصور أيضًا.

وأصلُ الأمر في صلاح الجسد ألَّا تحملَ عليه من المآكل والمشارب والباه إلَّا خُفافًا،[٢١] ثم إنْ قدرتَ على أنْ تعلم جميعَ منافعِ الجسد ومضارِّهِ والانتفاعَ بذلك كلِّه فهو أفضل.

وأصلُ الأمر في البأس والشجاعة ألَّا تُحدِّث نفسَك بالإدبار وأصحابُك مقبلون على عدوِّهم، ثم إنْ قدرتَ على أنْ تكون أوَّل حامل وآخرَ منصرف من غير تضييع للحذر[٢٢] فهو أفضل.

وأصلُ الأمرِ في الجُودِ ألَّا تضنَّ بالحقوق على أهلها، ثم إنْ قدرتَ أنْ تزيدَ ذا الحقِّ على حقِّه، وتَطَوَّل[٢٣] على من لا حقَّ لهُ فافعلْ، فهو أفضلُ.

وأصلُ الأمرِ في الكلامِ أنْ تَسْلَم من السَّقَطِ[٢٤] بالتحفُّظِ، ثم إنْ قدَرْتَ على بارع الصواب فهو أفضل.

وأصلُ الأمر في المعيشة ألَّا تَنِيَ[٢٥] عن طلب الحلال، وأنْ تُحسن التقدير لما تُفيد وما تُنفق، ولا يغرَّنكَ من ذلك سعةٌ تكونُ فيها، فإنَّ أعظم الناس في الدنيا خطرًا[٢٦] أحوجُهُم إلى التقدير، والملوكُ أحوجُ إليهِ من السُّوقةِ؛[٢٧] لأن السُّوقة قد تعيشُ بغيرِ مالٍ، والملوك لا قِوَام[٢٨] لهم إلَّا بالمالِ، ثم إنْ قَدَرْتَ على الرفق واللُّطْفِ في الطلب والعلم بوجوه المطالب فهو أفضلُ.

[٢١] كذلك وردت في نسخة الشنقيطي خُفافًا بالألف بين الفاءين، وزعم صاحب السعادة أحمد زكي باشا أنَّ المعنى معها لا يستقيم، قال: ووردت هذه الكلمة في ش: «خفافًا»، وأظن المعنى بها لا يستقيم، ورواها خِفا بالكسر ومعناه الخفيف، ولو كان يعتمد في تحقيقه على غير ذاكرته، لرأى صاحب القاموس يقول: والخِف بالكسر: الخفيف، والجماعة القليلة وكغراب الخفيف؛ لاستقام المعنى ولاستبان له اللفظ.

[٢٢] الحذر بالكسر ويحرك «مع الفتح»: التحرز ومجانبة الشيء.

[٢٣] أصلها تتطول حذفت إحدى التاءين تخفيفًا، ومعناه تمتن، وتروى أيضًا: تطول من الثلاثي المأخوذ من الطول الذي هو المن أيضًا.

[٢٤] السقط محركة: الخطأ.

[٢٥] من قولهم ونى الرجل في الأمر: فتر وضعف وكلَّ وأعيا.

[٢٦] الخطر بالتحريك: الشرف وارتفاع القدر والمنزلة.

[٢٧] السُّوقة بالضم: الرعية من الناس للواحد، والجمع والمذكر والمؤنث، وقد سموا كذلك؛ لأن الملك يسوقهم ويصرفهم إلى ما شاء، وأمَّا السوقي فواحد السوقيين لأهل السوق.

[٢٨] القِوام بالكسر: نظام الأمر وعماده، وملاكه الذي يقوم به.

وأنا واعظُكَ في أشياءَ من الأخلاق اللطيفة والأمور الغامضة، التي لو حَنَّكَتْكَ سِنٌّ كنتَ خليقًا أنْ تعلمها، وإنْ لم تُخْبَر عنها، ولكنَّني قد أحببتُ أنْ أُقدِّم إليك فيها قولًا لترُوض[29] نفسك على محاسنها، قبل أنْ تجري على عادة مساويها، فإن الإنسان قد تَبْتَدر إليه في شبيبته المساوئ، وقد يغلب عليه ما بَدَر إليه منها للعادة، فإنَّ لِترك العادة مئونة شديدة ورياضةً صعبة.

[29] من قولهم راض المُهر روضًا ورياضة: ذلله وجعله مسخرًا مطيعًا، والمعنى لتكره نفسك على مزاولة محاسنها.

المقالة الأولى: في السلطان

وفيها بابان

الباب الأول

في آداب السلطان وفيه مطالب

مطلبٌ «في أنَّ صاحب الإمارة لا ينبغي له أنْ يعني إلَّا بأعمالها»

إنْ ابتُلِيتَ بالسلطان[1] فتعوَّذ بالعلماء.[2]

واعلم أنَّ من العَجَب[3] أنْ يُبتلى الرجل بالسلطان، فيريد أنْ ينتقص من ساعات نصَبه وعمله، فيزيدها في ساعات دَعَتِه وفَراغه وشهوته وعبثه ونومه.

وإنما الرأي له والحق عليه أنْ يأخذ لعمله من جميع شُغْله، فيأخذ له من طعامه وشرابه ونومه وحديثه ولهوه ونسائه قدْرَ ما يكونُ به إصلاح جسمه، وتقويةٌ له على إتمام عمله.

---

[1] السلطان هنا: ولاية أمور الناس والإمارة، وقد وردت باللفظ الأخير في كثير من النُّسخ، وأمَّا لفظ السلطان الذي يعرف الآن، فقد استعمل في الإسلام ووضع لقب تفخيم لوزراء الدولة العباسية، ويقول ابن خلدون: إنَّ جعفر بن يحيى — وزير هارون الرشيد — سُمِّي سلطانًا، ويرجح عند المؤرخين أنَّ السلطان لم يكن رتبة رسميَّة إلَّا في أواخر القرن الرابع للهجرة؛ إذ سمي به محمود القزنوي بن سبكتكين، ويرون على هذا الرأي أنه أول سلطان في الإسلام بعد أنْ كانت رتبته أمير الأمراء، ثم صار بعدُ لملوك الأتراك والأكراد والجراكسة وغيرهم من السلاجقة والأيوبية والمماليك والعثمانيين.

[2] يقال: تعوذ به: اعتصم ولجأ إليه.

[3] العجب: إنكار ما يرد عليك، ومما لا ريب فيه أنَّ اشتغال صاحب السلطان بعبثه وشهواته وعنايته بدعته ورفاهيته في ملك، هو أحوج ما يكون إلى تلك الأوقات التي أنفقها في لذائذه، وذلك النصب الذي أضاعه في شهوات نفسه، مما يستفز الدهش ويثير العُجب.

رأى صاحب السعادة أحمد زكي باشا في تحقيق نسخته، أنَّ الأولى استبدال لفظ العيب بلفظ العجب ليستقيم المعنى، ولكنه رجع آخر الكتاب فارتضى العجب واستقام له المعنى.

وإنما تكون الدَّعة[٤] بعد الفراغ.

فإذا تقلَّدْتَ شيئًا من أمر السلطان فكن فيه أحد رجلين: إمَّا رجلًا مغتبطًا به،[٥] محافظًا عليه مخافةَ أنْ يزول عنه.

وإمَّا رجلًا كارهًا له مُكرَهًا عليه، فالكاره عاملٌ في سُخرةٍ؛ إمَّا للملوك إنْ كانوا هم سلَّطوه، وإمَّا لله تعالى إنْ كان ليس فوقه غيرُه.

وقد علمتَ أنه مَن فرَّط في سخْرَة الملوك أهلكوه، فلا تجعل للهلاك على نفسك سلطانًا ولا سبيلًا.

وإياك — إذا كنتَ واليًا — أنْ يكونَ من شأنك حبُّ المدح والتزكية، وأنْ يعرف الناس ذلك منك، فتكون ثُلْمَةً[٦] من الثُّلَمِ يتقحَّمون عليك منها، وبابًا يفتتحونك منه، وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منك لها.

واعلم أنَّ قابِلَ المدح كمادح نفسه، والمرء جديرٌ أنْ يكون حبه المدح[٧] هو الذي يحمله على ردِّه، فإن الرادَّ له محمود، والقابل له مَعِيب.

مطلبٌ «فيمن ينبغي للوالي أنْ ينال رضاه»

لِتكنْ حاجتك في الولاية إلى ثلاثِ خصال: رضى ربك، ورضى سلطان — إنْ كان فوقك — ورضى صالح مَن تَلِي عليه.

ولا عليك أنْ تلهو عن المال والذِّكْر، فسيأتيك منهما ما يحسنُ ويطيب ويُكتفى به.

واجعل الخصالَ الثلاث منك بمكانِ ما لا بُدَّ[٨] لك منه، واجعل المال والذِّكْر بمكان ما أنت واجد منه بُدًّا.

[٤] الدَّعة: الراحة والخفض.

[٥] مسرورًا.

[٦] الثلمة بالضم: فرجة المكسور والمهدوم والجمع ثُلم.

[٧] المدح مفعول للمصدر الذي هو حبه.

[٨] أي بمكان ما لا مفر لك منه ولا مندوحة عنه.

مطلبٌ «فيمن يجب أنْ يكونوا بطانة وأصفياء»

اعرف الفضل في أهل الدين والمروءة في كل كُورة[٩] وقَرْيةٍ وقبيلة، فليكونوا هم إخوانك، وأعوانك، وأخدانك، وأصفياءك، وبطانتك، ولطفاءَك، وثِقاتك، وخُلطاءك، ولا تَقذِفنَّ في رُوعِك[١٠] أنك إنْ استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك؛ فإنك لست تريد الرأي للافتخار به، ولكنما تريده للانتفاع به، ولو أنك مع ذلك أردت الذكر، كان أحسن الذكرين وأفضلهما عند أهل الفضل والعقل أنْ يقال: لا يتفرَّد برأيه دُون استشارة ذوي الرأي.

مطلبٌ «في أنَّ رضى الناس غاية لا تُدرك»

إنك إنْ تلتمس رضى جميع الناس تلتمسْ ما لا يُدرك.

وكيف يتَّفق لك رأي المختلفين؟ وما حاجتك إلى رضى مَن رِضاه الجَور، وإلى موافقة مَن موافقته الضلالة والجهالة؟ فعليك بالتماس رضى الأخيار منهم وذوي العقل؛ فإنك متى تُصِب ذلك تضع عنك مئونة ما سواه.

---

[٩] الكورة بالضم: الصقع، وفي المفردات: قيل لكل مِصْر كورة، وهي البقعة يجتمع فيها قُرى ومحالٌّ، «قال أحمد زكي باشا: وذلك من التقاسيم الجغرافية القديمة، مثل الرستاق في بلاد فارس، والمِخْلاف في بلاد اليمن، والجند في بلاد الشأم، وكما نقول نحن مديرية فيما يختص بأرض مصر.» ثم ذكر في الاستدراك آخر الكتاب أنَّ هذا مأخوذ بعضه عن ياقوت. أمَّا ياقوت فإنه قال في «مخاليف اليمن» هي بمنزلة الكور والرساتيق، وفي مادة «رستاق» قال: وربما جعل من نواحي كرمان.

وفي «أجناد الشأم» بذكر قول أحمد بن يحيى بن جابر: اختلفوا في الأجناد؛ فقيل سمَّى المسلمون فِلَسْطين جندًا؛ لأنه يجمع كورًا، والتجند التجمع، ثم قال أيضًا: ... ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص حتى كان يزيد بن معاوية، فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج جندًا يرأسه. وقد كان ياقوت جعل قنسرين أحد أجناد الشأم الخمسة.

فيستخلص من هذا كله أنَّ حاشية المحقق أحمد زكي باشا قد دخلها السهو، وأنَّ الكورة لا توازي الجند في الشأم كما يقول.

[١٠] الروع بالضم: القلب، وقيل موضع الفزع منه.

مطلبٌ «فيما ينبغي للسلطان نحو أصفيائه وسائر رعيته»

لا تُمَكِّنْ أهل البلاء الحَسَن عندك من التدلُّل[١١] عليك، ولا تُمكننَّ مَن سواهم من الاجتراء عليهم والعيب لهم.[١٢]

لِتعرفْ رعيتُك أبوابك التي لا يُنال ما عندك من الخير إلَّا بها، والأبوابَ التي لا يخافُك خائف إلَّا من قِبَلها.

---

[١١] يقال تدلل عليه: أظهر الجرأة إيهامًا بالمخالفة وليس في نفسه خلاف.

[١٢] يريد: ولا تُطمع فيهم غيرهم فيجترئوا عليهم ويعيبوهم. ذكر الأمير شكيب أنَّ عَابَ تتعدى باللام وهو خطأ، والصواب أنْ يقال عاب الشيء: صار ذا عيب، وعابه: أضاف إليه العيب.

وهنا استدرك صاحب السعادة أحمد زكي باشا على هذا الأمير آخر الكتاب وجاء بتحقيق مستفيض، ولكن لنا عليه ملاحظات ستَرِد بعد أنْ نذكره لك قال: «وإنما احتاج ابن المقفع لاستعمال جملة: «والعيب لهم.» لاستخدام لام التقوية التي تأتي بعد المشتقات لضعفها عن العمل بنفسها، ولو قال: «وعيبهم أو وعيبهم إياهم» لكان الكلام صحيحًا، ولكنه راعى المشاكلة مع الجار والمجرور قبله في قوله: «والاجتراء عليهم.» فاستعمل والعيب لهم، وهذا من حسن الديباجة وجمال الملاءمة التي يميل إليها بلغاء الكتاب.» ا.هـ. قول المحقق.

وأمَّا ملاحظاتنا؛ فأُولاها: اعتباره هذا المركب جملة، وهو قول ابن المقفع: «والعيب لهم»، وهو بعيد عن تقسيم الجمل التي يعرفها النحوي والبياني والمنطقي. وثانيهما: تعريفه لام التقوية بأنها التي تأتي بعد المشتقات؛ فإن هذا التعبير مما يدلُّ على أنه رأى في لفظ العيب اشتقاقًا، وكذلك يرى الكوفيون: أنَّ المصدر مشتق، ولكن ماذا يرى المحقق في قول الله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ هل يعتقد أنَّ الفعل مشتق أيضًا؟! وهل يعتقد أنَّ اللام جاءت «بعد» مشتق؟!

ثالثها: أنه جعل قول ابن المقفع غير صحيح، ثم لم يلبث أنْ جعله من حسن الديباجة وجمال الملاءمة التي يميل إليها بلغاء الكتَّاب! ولستُ أدري كيف تكون اللام للتقوية ومن باب المشاكلة، ثم يكون غير صحيح؟! ولعله يريد أنَّ هذا التركيب مما يمنعه الاستعمال المسموع وتجيزه القواعد الموضوعة، فإن كان ذلك يريد فعبارته تحتاج بعدُ إلى بيان أشفى وأوضح.

والحقيقة أنَّ لام التقوية هي المزيدة لتقوية عاملٍ ضعف عن العمل، وذلك إذا تأخر كقوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، أو كان العامل فرعًا في العمل، كاسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، وصيغة المبالغة؛ نحو: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾، ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾، وأمَّا ذلك التعريف الذي جاء به فلم يرض عنه كوفي ولا بصري.

احرص الحرص كلَّه على أنْ تكون خابرًا أمورَ عُمَّالك، فإنَّ المُسيء يَفْرَق من خُبْرتك قبل أنْ يُصيبه وَقْعُك به وعقوبتك، وإنَّ المحسن يستبشر بعلمك قبل أنْ يأتيه معروفك.

لِيعرف الناس — فيما يعرفون من أخلاقك — أنك لا تُعاجل بالثواب ولا بالعقاب، فإنَّ ذلك هو أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي.

مطلبٌ «في الحثِّ على احتمال نصح النصيح وعَذْله»

عوِّدْ نفسك الصبرَ على مَن خالفك من ذوي النصيحة، والتجرُّعَ لمرارة قولهم وعذْلهم، ولا تُسهِّلَنَّ سبيل ذلك إلَّا لأهل العقل والسِّنِّ والمروءة؛ لئلا ينتشر من ذلك ما يجترئُ به سفيه أو يستخفُّ به شانئ.[١٣]

مطلبٌ «في أنَّ السلطان لا ينبغي له أنْ يعني بغير الخطير من الرجال والأعمال»

لا تتركُنَّ مباشرة جسيم أمرك فيعودَ شأنك صغيرًا، ولا تُلزمن نفسك مباشرة الصغير، فيصيرَ الكبيرُ ضائعًا.

واعلم أنَّ مالك لا يُغني الناسَ كلهم فاخصص به أهل الحق، وأنَّ كرامتك لا تُطيق العامَّةَ كلها فتَوَخَّ بها أهل الفضل، وأنَّ قلبك لا يتسع لكل شيء ففرِّغه للمهم، وأنَّ ليلك ونهارك لا يستوْعبان حاجاتك وإنْ دأبتَ فيهما، وأنْ ليس لك إلى إدامة الدأب فيهما سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه منهما، فأحسنْ قسمتهما بين عملك ودَعَتِك.

واعلم أنَّ ما شَغَلْتَ من رأيك بغير المهم أزرَى بك في المهم، وما صرفت من مالك في الباطل فقدتهُ حين تريده للحق، وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص عن أهل الفضل، وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك عند الحاجة منك إليه.

[١٣] الشانئ: المبغض.

مطلبٌ «في تحذير السلطان من الإفراط في الغضب والتسرع في الرضى»

اعلم أنَّ من الناس ناسًا كثيرًا[١٤] يبلغ من أحدهم الغضب — إذا غضب — أنْ يحمله ذلك على الكُلُوح[١٥] والقُطُوب[١٦] في وجه غير من أغضبه، وسوءِ اللفظ لمن لا ذنب له، والعقوبة لمن لم يكن يَهِمُّ[١٧] بمعاقبته، وشدَّة المعاقبة باللسان واليد لَمَن لم يكن يُريد به إلَّا دون ذلك، ثم يبلغ به الرضى — إذا رضي — أنْ يتبرَّع بالأمر ذي الخطر[١٨] لَمَن ليس بمنزلة ذلك عنده، ويُعطي مَن لم يكن يريد إعطاءه، ويُكرم من لم يرد إكرامه، ولا حقَّ له ولا مودة عنده.

فاحذر هذا الباب الحذر كلَّه! فإنه ليس أحدٌ أسوأ فيه حالًا من أهل السلطان الذين يُفرطون باقتدارهم في غضبهم، وبتسرَّعهم في رضاهم، فإنه لو وُصِفَ بهذه الصفة مَن يُلْتَبَسُ بعقله أو يتخبَّطه المسُّ؛[١٩] أنْ يُعاقِب عند غضبه غير مَن أغضبه، ويَحْبو[٢٠] عند رضاه غير مَن أرضاه لكان جائزًا ذلك في صفته.

مطلبٌ «في أنواع المُلك»

اعلم أنَّ المُلك ثلاثةٌ: مُلك دِينٍ، ومُلك حزمٍ، ومُلك هوًى.

فأمَّا مُلك الدَّين فإنه إذا أقام للرعية دينهم، وكان دينهم هو الذي يُعطيهم الذي لهم ويُلحق بهم الذي عليهم، أرضاهم ذلك، وأنزل الساخط منهم منزلة الراضي في الإقرار والتسليم.

---

[١٤] ناس: اسم وُضِع للجمع كالرهط والقوم، واحده إنسان من غير لفظه، واسم الجمع يعامل معاملة المفرد كما يعامل معاملة الجمع؛ فيقال: ناس كثير كما يقال ناس كثيرون، وقيل: إنه جمع أنس وأصل أناس جمعٌ نادر، وهو ما لم يجر عليه ابن المقفع هنا، وإلَّا لوجب أنْ يقول: «ناس كثيرون».

[١٥] الكلوح بالضم، ومثله الكُلاح مضمومًا أيضًا مصدر كلح الوجه كقطع: تكشر في عبوس، أو عبس فأفرط في تعبسه، وقيل: إنَّ الكلوح في الأصل بدوُّ الأسنان عند العبوس.

[١٦] القُطوب مضمومًا والقَطب مفتوحًا: مصدر قطب الرجل كنصر زوى ما بين عينيه وكلح، ويقال زوى ما بين عينيه وما بين عينيه.

[١٧] من هم بالشيء همًّا، نواه وأراده وعزم عليه وقصده ولم يفعله.

[١٨] الخطر بالتحريك: عِظم الأمر ورفعة شأنه.

[١٩] المس بالفتح: الجنون، وقد كان العرب يزعمون أنَّ الشيطان يمس الرجل فيختلط عقله.

[٢٠] يقال حبا فلانًا كذا، وبكذا: أعطاه، وأمَّا حباه عن كذا فبمعنى منعه.

وأمَّا مُلك الحزم فإنه يقوم به الأمر ولا يَسلَم من الطعن والتسخُّط، ولن يضرَّ طعنُ الضعيف مع حزم القويِّ.

وأمَّا مُلك الهوى فَلَعِبُ ساعةٍ ودَمارُ دهرٍ.

مطلبٌ «في التحذير مما لم يُبْنَ على حزم من أعمال السلطان»

إذا كان سلطانك عند جِدَّة[21] دولةٍ، فرأيتَ أمرًا استقام بغير رأي، وأعوانًا أَجْزَوا[22] بغير نَيْل، وعملًا أَنْجَح[23] بغير حزم، فلا يغرَّنك[24] ذلك ولا تَسْتَنِيمَنَّ إليه، فإن الأمر الجديد رُبَّما

[21] الجِدَّةُ بالكسر فالتشديد: ضد القدم، وأصله من جد الحائك الثوب: قطعه، وجد الثوب صار جديدًا، يريد: في إبان ظهور الدولة ونشأة السلطان.

[22] الإجزاء والجزاء: الغناء والكفاية، يقال: جزى عنك وأجزى إذا غني غناءك وكفاك مهمًّا من أمرك، والمهموز الذي اختاره ابن المقفع: إنما هو لغة تميم.

[23] نجح الأمر وأنجح: قُضِي وتيسر، وأنجح فلان في أمره: ظفر به، وأنجح الله حاجتك: قضاها، كل ذلك ثبت في اللغة صحيح في استعمال الفصحاء، وزعم صاحب السعادة أحمد زكي باشا أنَّ هذا الفعل: إن همز اختص بالعقلاء وهو تخصيص غريب لا تعرفه اللغة، ولم يستطع المحقق نفسه أنْ يثْبُت عليه، بل اضطر إلى أنْ يعترف بأن في اللغة أنجحت الحاجة: إذا تيسرت، ثم قال: أمَّا أنجح فخاص بالعقلاء، بمعنى فاز وظفر. وهو اضطراب غريب في التخصيص، فإن هذا الاختلاف المعنوي لم ينشأ إلَّا من اختلاف الإسناد.

ألا ترى أنَّ المحقق نفسه وسائر اللغويين يتفقون على: «أنجحت الحاجة، وأنجحها الله.» مع أنَّ اختلاف الإسناد جعل في الفعلين اختلافًا معنويًّا ولفظيًّا لا شك فيه؛ أمَّا المعنوي فإن إنجاح الحاجة: تيسرها، وإنجاح الله إياها: تيسيره لها، وأمَّا اللفظي فظاهرٌ وهو أنَّ أول الفعلين لازم مطاوع لثانيهما المتعدي.

[24] المعروف أنَّ نون التوكيد الثقيلة هي كالخفيفة ترد في النظم كما ترد في النثر، وتؤديان وظيفة واحدة، وأن انفرد الخليل بأن التأكيد بالثقيلة عنده أبلغ من التأكيد بالخفيفة، غير أنَّ زكي باشا يذكر في استدراكاته قوله: «ومعلوم أنَّ أكثر استعمال هذه النون — أي الخفيفة — إنما يكون في النظم والأولى أنْ تكون هنا ثقيلة.» وهو قول ليس بوجيه؛ لأن النون الخفيفة كثيرًا ما وردت في المنثور، إلَّا أنها في المنظوم أبين لمساعدة الوزن على توضيحها، بخلاف المنثور الذي قلَّ فيه الضبط، فلم تُعلَم فيه الخفيفة من الثقيلة، على أنهما وردتا في التنزيل، قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، وعندي أنَّ النون الخفيفة في هذه الآية قد أدَّت وظيفة الثقيلة من تأكيد الوعيد، بالرغم مما قيل في هذه الآية من أنَّ الخفيفة ما اكتسبت هذا التأكيد إلَّا من الثقيلة قبلها، يؤيد ذلك قوله تعالى:

يكون له مهابةٌ في أنفس أقوام، وحلاوةٌ في قلوب آخرين، فيُعينُ قومٌ على أنفسهم ويعين قومٌ بما قِبَلَهم، ويَسْتَتِبُّ ذلك الأمر غيرَ طويلٍ، ثم تصير الشئون إلى حقائقها وأصولها.

فما كان من الأمور بُنِي على غير أركانٍ وثيقة ولا دعائمَ مُحكمة، أوشكَ أنْ يتداعى ويتصدَّع.

لا تكوننَّ نَزْر الكلام والسلام، ولا تبلُغنَّ بهما إفراط الهشاشة والبشاشة، فإنَّ إحداهما من الكِبْر والأخرى من السُّخْفِ.

مطلبٌ «في حضِّ السلطان على التوثق من رأي الأعوان قبل الإقدام»

إذا كنت إنما تضبط أمورك وتصول على عدوِّك بقومٍ لستَ منهم على ثِقة من دِين ولا رأي ولا حِفاظٍ[٢٥] من نيَّة، فلا تفعلْ نافلةً[٢٦] حتى تحمِلهم — إنْ استطعت — على الرأي والأدب الذي بمثله تكون الثقة، أو تستبدِل بهم إنْ لم تستطع نقلهم إلى ما تريد، ولا تَغُرَّنك قوتك

﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾، ومعلوم أنَّ هذه الآية نزلت في أبي جهل؛ إذ حلف باللات والعزى لئن رأى رسول الله ﷺ يصلي ليطأن على رقبته، وليعفرن وجهه، فجاء رسول الله ﷺ وهو يصلي، فما فجأهم منه إلَّا وهو ينكص على عقبيه وينفي بيديه، فقيل له في ذلك، فقال: إنَّ بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة، إلى آخر ما ورد مما هو مشهور، فالمقام مقام ردع وزجر ووعيد، ومعنى لنسفعًا بالناصية: لنأخذن بناصيته ولنسحبن بها إلى النار يوم القيامة، فأدت الخفيفة هنا وظيفة الثقيلة أيضًا، فإن قيل: إنَّ تأكيد التهديد والوعيد قد اكتسب أيضًا من كلمة «كلا» قبلها، كان هذا غير مقبول أيضًا؛ لورودها في بعض القراءات بالثقيلة، فقد قرأ محبوب وهارون وكلاهما عن أبي عمرو «لنسفعنَّ» بالنون الشديدة، وقرأ ابن مسعود «لأسفعن» كذلك مع إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم وحده.

فتبيَّن الآن أنَّ الخفيفة تؤدي ما تؤديه الثقيلة، وقد تقوم مقامها ولا وجه إذن للأولوية التي ذكرها المحقق في نسخته، على أنَّ ابن المقفع راعى في ذلك كله الأسلوب وانبساط النفس الذي يجري مع الخفيفة، ويسلس في هذا التركيب.

[٢٥] أصل الحفاظ: الذود عن المحارم، يريد: إنْ لم تثق ممن تصول بهم على عدوك بأن ذودهم عنك ومساعدتهم إياك صادر عن بصيرة ونية …

[٢٦] رويت: فلا تفعل نافلة، والنافلة: ما يفعله الإنسان مما ليس بواجب عليه، ولستُ أجد لها معنًى يتفق مع سابقها ولاحقها، وكذلك وردت: فلا تنفك نافعة، وهذه الرواية كسابقتها لا تنقع غلة ولا تشفي علة.

وأمَّا نحن فقد رجحنا أنها: فلا تنفك داعية، وتحريف «نافعة» عن «داعية» سهل وقريب، والمعنى على ذلك بيِّنٌ لا شُبهة فيه، يريد: إنْ لم تكن على ثقة من دخيلة أعوانك فلا تزل فيهم داعية تبرر رأيك، وتدعم حجتك، وتقوي عقيدتك حتى تحملهم على أنْ يكونوا موضعًا لثقتك.

بهم على غيرهم، فإنَّما أنت في ذلك كراكبِ الأسد الذي يهابُهُ مَن نظر إليه، وهو لِمَرْكَبه أهْيَب.

مطلبٌ «في تحذير السلطان من أمَّات الرذائل: الغضب والكذب والبخل وكثرة الحلف»

ليس للمَلِك أنْ يغضب؛ لأن القُدرة من وراء حاجته.

وليس له أنْ يكذب؛ لأنه لا يقدر أحد على استكراهه على غير ما يريد.

وليس له أنْ يبخل؛ لأنه أقل الناس عذرًا في تخوُّف الفقر.

وليس له أنْ يكون حَقُودًا؛ لأن خطره[٢٧] قد عَظُم عن مجاراة كل الناس.

وليس له أنْ يكون حلَّافًا؛ لأن أحق الناس باتقاء الأيمان الملوك، فإنما يَحمل الرجل على الحَلِف إحدى هذه الخصال: إمَّا مَهانة[٢٨] يجدها في نفسه، وضَرَعٌ[٢٩] وحاجة إلى تصديق الناس إياه.

وإمَّا عِيٌّ[٣٠] بالكلام، فيجعل الأيمانَ له حَشْوًا ووصلًا.

وإمَّا تُهمةٌ قد عرفها من الناس لحديثه، فهو يُنْزِل نفسه منزلةَ مَن لا يُقبَل قوله إلَّا بعد جَهْد اليمين.[٣١]

وإمَّا عَبَثٌ[٣٢] بالقول وإرسال لِلِّسان على غير روِيَّة ولا حُسن تقدير، ولا تعويدٍ له قول[٣٣] السَّداد والتثبُّت.

وربما قيل في هذا التحريف: «فلا تنفعك نافعة.» وهذه الجملة مع قربها وإمكان موافقتها لا يزال فيها شيء من خفاء.

[٢٧] يريد: لأن عِظم قدره ورفعة شأنه تأبى عليه أنْ يجاري الناس في رذائلهم.

[٢٨] المهانة: المذلة.

[٢٩] الضرع محركة: الضعف وهو مصدر ضرع كفرح لغة في ضرع إليه كقطع ومصدره ضراعة.

[٣٠] العِيُّ بالكسر: مصدر عيَّ الرجل بأمره، وعن أمره وعيي بالفك، والإدغامُ أكثر، والفعل كعلم والمعنى لم يهتد إلى وجه مراده أو عجز ولم يطق أحكامه.

[٣١] أي بُعد المبالغة في اليمين.

[٣٢] العبث محركة: اللغو.

[٣٣] قول: مفعول ثانٍ لتعويد؛ لأنه ينصب مفعولين.

مطلبٌ «في أن لا عيب على المَلِك أنْ يلهو إذا وثق من تدبير ملكه»

لا عيب على المَلِك في تعيُّشه وتنعمه ولعبه ولهوه، إذا تعاهد[٣٤] الجسيمَ من أمره بنفسه، وأحكم المهمَّ، وفوَّض ما دُون ذلك إلى الكُفاة.[٣٥]

مطلبٌ «في أنَّ أحق الناس باتهام نظره بعين الريبة السلطان»

كلُّ أحد حقيق — حين ينظر في أمور الناس — أنْ يتَّهِمَ نظره بعين الريبة،[٣٦] وقلبَه بعين المقت،[٣٧] فإنهما يُزيِّنان الجَوْر،[٣٨] ويحملان على الباطل، ويُقَبِّحان الحَسن، ويُحسِّنان القبيح.

وأحق الناس باتهام نظره بعين الريبة وعين المقت؛ السلطانُ الذي ما وقع في قلبه ربا[٣٩] مع ما يُقَيض له من تزيين القُرَناء والوزراء.

وأحق الناس بإجبار نفسه على العدل في النظر والقول والفعل؛ الوالي الذي ما قال أو فعل كان أمرًا نافذًا غيرَ مردود.

لِيعلم الوالي أنَّ الناس يَصِفُون الوُلاة بسُوءِ العهد ونسيان الوُد، فلْيكابِر نقض قولهم، ولْيُبطل عن نفسه وعن الولاة صفات السوء التي يُوصفون بها.

مطلبٌ «في حض السلطان على الإمعان في تفقد أمر رعيته»

حقُّ الوالي أنْ يتفقَّد لطيف أمور رعيته، فضلًا عن جسيمها، فإن لِلَّطيف موضعًا يَنْتفِع به، وللجسيم موضعًا لا يَستغني عنه.

---

[٣٤] يقال تعاهد الشيء وتعهَّده: تفقده.

[٣٥] الكفاة: جمع كافٍ وهو ما يكفيك.

[٣٦] الرِّيبة بالكسر: الشك كالرَّيب بالفتح.

[٣٧] المقت: البُغض والكراهة مصدر مَقتَ كَنَصر.

[٣٨] الجور: الظلم وتجاوُز الحد، مصدر جار كقال.

[٣٩] ربا يربو: زاد كنما ينمو.

لِيتفقَّد الوالي — فيما يتفقد من أمور رعيته — فاقة[٤٠] الأخيار والأحرار منهم، فليعملْ في سَدِّها، وطغيان السفلة منهم فليقمَعْه،[٤١] ولْيَسْتوحش[٤٢] من الكريم الجائع واللئيم الشبعان، فإنما يَصُول الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع.

مطلبٌ «فيما ينبغي للوالي أنْ يتخلَّى عنه»

لا ينبغي للوالي أنْ يحسُدَ الولاة إلَّا على حسن التدبير.

ولا يحسُدنَّ الوالي مَن دونه، فإنه أقلُّ في ذلك عذرًا من السُّوقة التي إنما تحسُدُ مَن فوقها، وكُلٌّ لا عُذْر له.

لا يلومنَّ الوالي على الزَّلَّة مَن ليس بمُتَّهَم عنده في الحرص على رضاه إلَّا لَوْمَ أَدَب وتقويم، ولا يعدِلنَّ بالمجتهد في رضاه البصير بما يأتي أحدًا.

فإنهما إذا اجتمعا في الوزير والصاحب نام الوالي واستراح، وجُلِبت إليه حاجاته، وإنْ هدأ عنها، وعُمِل له فيما يُهمُّه وإنْ غَفَلَ.

لا يُولعَنَّ الوالي بسوء الظنِّ لقول الناس، ولْيجعل لحُسن الظن من نفسه نصيبًا موفورًا يروِّح[٤٣] به عن قلبه ويُصدِر[٤٤] عنه في أعماله.

لا يُضيِّعَنَّ الوالي التثبُّت عندما يقول، وعندما يُعطي، وعندما يَعْمل.

فإنَّ الرجوعَ عن الصمت أحسنُ من الرجوع عن الكلام، وإنَّ العطيَّة بعد المنع أجملُ من المنع بعد الإعطاء، وإنَّ الإقدام على العمل بعد التأنِّي فيه أحسنُ من الإمساك عنه بعد الإقدام عليه.

وكل الناس محتاجٌ إلى التثبت.

وأحوجهم إليه ملوكُهم الذين ليس لقولهم وفعلهم دافعٌ، وليس عليهم مستحِثٌّ.

---

[٤٠] الفاقة: الحاجة والفقر.

[٤١] يريد فليصرفه عنه.

[٤٢] استوحش: ضد استأنس، يريد: لا تؤمن له ولا تستسلم إليه.

[٤٣] يخفف به عن نفسه وينفِّس عن قلبه.

[٤٤] يقال أصدرت في الأمر عن رأيٍ حازم؛ أي مضيت فيه بتثبُّتٍ ورويَّة، ونظن لفظ «في» سقط من الناسخ في بعض النسخ.

مطلبٌ «فِي حَثِّ السلطان على الأخذ بالدين والبر والمروءة»

لِيعلم الوالي أنَّ من الناس حُرصاءَ على زِيِّه[٤٥] إلَّا مَن لا بال له،[٤٦] فليكن للدِّين والبرِّ والمروءة عنده نَفاق،[٤٧] فيُكسِد[٤٨] بذلك الفُجُور والدناءة في آفاق الأرض.

مطلبٌ «فيما يحتاج إليه الوالي من الآراء»

جِمَاع[٤٩] ما يحتاج إليه الوالي من أمر الدنيا رأيان: رأي يُقَوِّي به سلطانَه، ورأيٌ يُزيِّنه في الناس.

ورأي القوة أحقهما بالبُداءة وأوْلاهما بالأَثَرة.[٥٠]

ورأي التزيين أحضرهما حلاوةً وأكثرهم أعوانًا.

مع أنَّ القوَّة من الزينة، والزينة من القوة، ولكنَّ الأمر يُنْسَب إلى مُعْظَمِه وأصله.

---

[٤٥] أي حريصين على أنْ يشبهوه في أعماله ويقتدروا به في أفعاله.

[٤٦] البال: الخطر ويريد: إلَّا من لا هِمة له ولا خطر.

[٤٧] النَّفاق: الرواج.

[٤٨] يريد: فيقال بذلك ...

[٤٩] جِماع الشيء بالكسر: جمعه.

[٥٠] الأثرة بالتحريك: الاختيار واختصاص المرء نفسه بأحسن الشيء دون غيره.

الباب الثاني

في صحبة السلطان

مطلبٌ «في تحذير مصاحب السلطان أنْ يغتر باستئناسه»

إنْ ابتُليتَ بصحبة السلطان فعليك بطول المواظبة في غير معاتبة، ولا يُحْدِثَنَّ لك الاستئناسُ به غفلةً ولا تهاونًا.

إذا رأيتَ السلطان يجعلك أخًا فاجعله أبًا، ثم إن زادك فزِدْه.

إذا نَزَلْتَ مِن ذِي منزلة أو سُلطان، فلا تَرَيَنَّ أنَّ سلطانه زادك له توقيرًا وإجلالًا، من غير أنْ يزيدك وُدًّا ولا نصحًا، وأنك ترى حقًّا له التوقير والإجلال، وكن في مداراته والرفق به كالمؤتنف[1] ما قبله، ولا تُقدِّر الأمر بينك وبينه على ما كنتَ تعرف من أخلاقه، فإن الأخلاق مستحيلة مع المُلك، وربما رأينا الرجل المُدِلَّ على ذي السلطان بقِدَمه قد أضرَّ به قِدَمه.

إنْ استطعتَ ألَّا تصحَبَ مَن صَحِبْت مِنَ الولاة إلَّا على شُعْبة[2] من قرابة أو مودَّة فافعل، فإن أخطأك ذلك فاعلم أنك إنما تعمل على السُّخْرة.[3]

إنْ استطعت أنْ تجعل صُحْبَتَك لمن قد عَرَفَك بصالح مُرُوءَتك وصحَّة دِينك وسلامة أُمورك قبل ولايته فافعل.

---

[1] المستأنف.

[2] الشعبة: الطائفة من كل شيء.

[3] السخرة: ما سخرت من خادم ودابة بلا أجر ولا ثمن.

فإنَّ الوالِي لا عِلْمَ له بالناس إلَّا ما قد عَلِمَ قبل ولايته، أمَّا إذا وَلِي فكلُّ الناس يلقاه بالتزيُّن والتصنُّع،[٤] وكلهم يحتال لأنْ يُثنَى عليه عنده بما ليس فيه، غير أنَّ الأنذال والأرذال هم أشدُّ لذلك تصنُّعًا وأشدُّ عليه مثابرة وفيه تمحُّلًا.

فلا يمتنع الوالي — وإنْ كان بليغ الرأي والنظر — من أنْ يَنْزِل عنده كثيرٌ من الأشرار بمنزلة الأخيار، وكثيرٌ من الخانة[٥] بمنزلة الأُمَنَاء، وكثيرٌ من الغَدَرَة[٦] بمنزلة الأوفياء، ويغَطَّى عليه أمر كثير من أهل الفضل الذين يصونون أنفسهم عن التمحل والتصنُّع.

مطلبٌ «في تحذير أثير السلطان من إكثار ألفاظ الملق»

إذا عرَفتَ نفسَك من الوالي بمنزلة الثقة، فاعزل عنه كلام المَلَق، ولا تُكثرنَّ من الدعاء له في كل كلمة، فإنَّ ذلك شبيهٌ بالوَحْشة والغُربة، إلَّا أنْ تكلِّمه على رءوس الناس، فلا تَأْلُ عمَّا عظَّمه ووقَّره.

مطلبٌ «في الحذر من أنْ يظن الوالي بك مشايعة الهوى»

لا يعرِفنَّك الوُلاة بالهوَى في بلدٍ من البلدان، ولا قبيلة من القبائل، فيُوشِك أنْ تحتاج فيهما إلى حكاية أو شهادة، فتُتَّهم في ذلك.

فإذا أردتَ أنْ يُقْبل قولُكَ فصحِّحْ رأيك ولا تَشُوبَنَّه[٧] بشيء من الهوى، فإن الرأي الصحيح يقبله منك العدوُّ، والهوى يردُّه عليك الولَد والصديق.

وأحقُّ مَن احترستَ من أنْ يظُنَّ بك خلْطَ الرأي بالهوى الولاةُ، فإنَّها خديعة وخيانة وكفرٌ عندهم.

---

[٤] يقال تصنع الرجل: تكلَّف حُسن السمت والتزين، وأظهر عن نفسه فعلًا ليس فيه.

[٥] الخانة: جمع خائن كما يجمع أيضًا على خونة وخائنين.

[٦] الغدرة كفجرة، جمع غادر كفاجر، وهو الذي انبعث في المعاصي ففسق وزنى.

[٧] أي لا تخلطنه بشيء من الهوى.

مطلبٌ «في التنفير من صحبة والٍ لا يريد صلاح رعيته»

إنْ ابتُليتَ بصحبة والٍ لا يريد صلاح رعيته، فاعلم أنك قد خُيرتَ بين خَلَّتين[٨] ليس منهما خيار: إمَّا الميل مع الوالي على الرعيَّة، وهذا هلاك الدِّين.

وإمَّا الميل مع الرعيَّة على الوالي، وهذا هلاك الدنيا.

ولا حيلةَ لك إلَّا الموتُ أو الهَرَب.

واعلم أنه لا ينبغي لك — وإنْ كان الوالي غير مرضيَّ السيرة إذا عَلِقَتْ حبالُك بحباله — إلَّا المحافظة عليه، إلَّا أنْ تجدَ إلى الفِراق الجميل سبيلًا.

تَبَصَّرْ ما في الوالي من الأخلاق التي تُحبُّ له والتي تكرَهُ، وما هو عليه من الرأي الذي تَرْضَى له والذي لا ترضى، ثم لا تُكابِرَنَّه بالتحويل له عما يُحبُّ ويَكرَه إلى ما تُحبُّ وتَكْرَه، فإنَّ هذه رياضة صَعبة تحمِلُ على التنائي والقِلَى.

فإنك قلَّما تقدِرُ على ردِّ رجلٍ عن طريقةٍ هو عليها بالمكابرة والمناقضة، وإنْ لم يكن ممن يجمحُ به عزُّ السلطان، ولكنَّك تقدر على أنْ تُعينه على أحسن رأيه، وتُسَدِّدَه فيه وتُزَيِّنَه، وتُقَوِّيه عليه، فإذا قَوِيتْ منه المحاسنُ كانت هي التي تكفيك المساوئَ، وإذا استحكمتْ منه ناحية من الصواب كان ذلك الصواب هو الذي يُبصِّره مواقع الخطأ بألطفَ من تبصيرك، وأعدلَ من حُكمك في نفسه، فإنَّ الصوابَ يُؤيِّد بعضُه بعضا، ويدعو بعضه إلى بعض حتى تستحكمَ لصاحبه الأشياء، ويظهرَ عليها بتحكيم الرأي، فإذا كانت له مكانةٌ من الأصالة اقتلع ذلك الخطأ كلَّه.

فاحفظ هذا البابَ وأحْكِمْه.

مطلبٌ «فيما ينبغي لطالب الحاجة لدى السلطان»

لا يكوننَّ طلبُك ما عند الوالي بالمسألة،[٩] ولا تستبطئه وإنْ أبطأ عليك،[١٠] ولكن اطلُبْ ما قِبَله بالاستحقاق له، واسْتَأْنِ به[١١] وإنْ طالت الأناة منه، فإنك إذا استحققته أتاك عن غير طلب، وإنْ لم تستبطئه كان أعجل له.

---

[٨] الخَلة بالفتح: الخَصْلة.

[٩] السؤال.

[١٠] يقال أبطأ عليه بالأمر: أخَّره.

[١١] من استأنى بالأمر: انتظره.

مطلبٌ «في تحذير صاحب السلطان من الإدلال عليه»

لا تُخبِرنَّ الوالي أنَّ لك عليه حقًّا، وأنك تعتدُّ عليه ببلاءٍ، وإنْ استطعت ألَّا ينسى حقَّك وبلاءك فافعل، ولْيكُن ما يُذَكِّره به من ذلك تجديدُك له النصيحةَ والاجتهاد، وألَّا يزالَ ينظرُ منك إلى آخر يُذَكِّره أوَّلَ بلائك.

واعلم أنَّ السلطان إذا انقطع عنه الآخِرُ نسي الأوَّل، وأنَّ الكثير من أولئك أرحامُهم مقطوعةٌ وحبالهم مصرومة، إلَّا عمَّن رضوا عنه وأغنى عنهم[١٢] في يومهم وساعتهم.

مطلبٌ «في تحذير صاحب السلطان من التعتُّب عليه والاستزراء له»

إياك أنْ يقعَ في قلبك تعتُّبٌ[١٣] على الوالي أو استزراءٌ له.

فإنه إنْ وقع في قلبك بَدَا في وجهك إنْ كنت حليمًا، وبدا على لسانك إنْ كنت سفيهًا.

فإن لم يَزِدْ ذلك على أنْ يَظهرَ في وجهك لآمَنِ الناس عندك، فلا تأمننَّ أنْ يظهر ذلك للوالي.

فإنَّ الناس إلى السلطان بعَوْرات الإخوان سِرَاعٌ، فإذا ظهر ذلك للوالي كان قلبُه هو أسرعَ إلى النفور والتغيُّر من قلبك، فَمَحَق ذلك حسناتِك الماضية، وأشرف بك على الهلاك، وصرت تعرف أمرَك مستدبرًا، وتلتمِس مرضاة سلطانك مستصعِبًا، ولو شئتَ كنت تركته راضيًا وازددتَ من رضاه دُنُوًّا.

مطلبٌ «في حض الوزير على الحذر من أعدائه والترويح عن نفسه»

اعلم أنَّ أكثر الناس عدوًّا جاهدًا حاضرًا جريئًا واشيًا وزيرُ السلطان ذو المكانة عنده؛ لأنه منفوسٌ عليه[١٤] مكانُه بما يُنْفسُ على صاحب السلطان، ومحسودٌ كما يُحْسد، غير

[١٢] أي أجزأ وقام مقامهم.

[١٣] التعتُّب: تخاطب الإدلال، وفلان لا يتعتب عليه في شيء؛ أي لا يعاب، ومن هنا أراد ابن المقفع.

[١٤] محسود عليه.

أنه يُجْتَرأ عليه، ولا يُجْتَرأ على السلطان؛ لأنَّ من حاسديه أحباءَ[١٥] السلطان وأقاربَه الذين يشاركونه في المداخل والمنازل، وهم وغيرهم من عدوِّه الذين هم حُضَّاره، ليسوا كعدو السلطان النائي عنه والمُكْتَتِم منه، وهم لا ينقطع طمعهم من الظفر به، فلا يَغْفُلُون عن نَصْب الحبائل له.

فاعرف هذه الحال، والْبَس لهؤلاء القوم — الذين هم أعداؤك — سلاحَ الصحة والاستقامة، ولُزُوم المَحَجة فيما تُسرُّ وتُعلِنُ، ثم رَوِّحْ عن قلبك حتَّى كأنك لا عدوَّ لك ولا حاسد.

وإنْ ذكَرَك ذاكرٌ عند السلطان بسوءٍ في وجهك أو في غَيْبَتِك، فلا يَرَينَّ السلطان ولا غيرُه منك اختلاطًا لذلك، ولا اغتياظًا، ولا ضجرًا، ولا يَقَعنَّ ذلك في نفسك موقع ما يَكْرِثك،[١٦] فإنه إنْ وقع منك ذلك الموقع أدخل عليك أمورًا مشتبهة بالرِّيبة، مُذكِّرة لما قال فيك العائبُ، وإنْ اضطرَّك الأمرُ في ذلك إلى الجواب فإيَّاك وجوابَ الغَضَب والانتقام، وعليك بجواب الحُجَّة في حِلمٍ ووقار.

ولا تَشُكَّنَّ في أنَّ الغَلَبَةَ والقوَّةَ للحليم أبدًا.

مطلبٌ «في حض الوزير على التحفظ في القول والحرص على الإجابة»

لا تتكلَّمَنَّ عند الوالي كلامًا أبدًا إلَّا لعناية، أو يكون جوابًا لشيء سُئِلت عنه، ولا تُحضِرنَّ عند الوالي كلامًا أبدًا لا تُعْنَى به أو تُؤمر بحضوره.

ولا تَعُدَّنَّ شَتْم الوالي شتمًا، ولا إغْلاظه إغْلاظًا، فإن ريح العزَّة قد تبسط اللسان بالغلظة في غير سخطٍ ولا بأس.

[١٥] كذلك وردت بالباء المشددة في أكثر النسخ، ولكن زكي باشا عدل عنها إلى «أحياء» بالتحتية، زاعمًا أنَّ الأحباء لا يتقدمون في الذكر على الأقارب، وأمَّا نحن فإنا نرى الأحباء في أول مراتب الذكر، ولا سيما لدى السلطان الذي لا يخفى على أحد ما يكنه الأهل والأقارب له.

[١٦] يضجرك ويحزنك.

مطلبٌ «في مجانبة المسخوط عليه من السلطان حتى يتوب فتشفع له»

جانِبِ المسخوط عليه والظنينَ[١٧] به عند السلطان، ولا يجمعنَّك وإياه مجلسٌ ولا منزلٌ، ولا تُظهِرنَّ له عُذْرًا، ولا تُثْنِيَنَّ عليه خيرًا عند أحد من الناس.

فإذا رأيته قد بَلَغَ من الإعْتاب[١٨] مما سُخِط عليه فيه ما ترجُو أنْ تُلِينَ له به قلب الوالي، واستَيْقنت أنَّ الوالي قد استيقن بمباعدتك إياه وشدَّتِك عليه عند الناس، فضعْ عُذْره عند الوالي واعْمَل في إرضائه عنه في رفقٍ ولطفٍ.

مطلبٌ «في خضوع الوزير للسلطان إلَّا فيما يكرهه الدين والعِرض والمروءة»

لِيعلم الوالي أنك لا تستنكِفُ عن شيء من خدمته، ولا تدعُ مع ذلك أنْ تُقدِّم إليه القول — على بعض حالات رضاه وطِيب نفسه — في الاستعفاء من الأعمال التي هي أهلٌ أنْ يَكْرَهها ذو الدِّين، وذو العقل، وذو العِرْض، وذو المروءة؛ من ولايةِ القتل والعذاب وأشباه ذلك.

وإذا أصبتَ الجاهَ والخاصة عند السلطان، فلا يُحْدِثنَّ لك ذلك تغيُّرًا على أحد من أهله وأعوانه، ولا استغناء عنهم؛ فإنك لا تدري متى تَرى أدنَى جفوة أو تغيُّر فتذِلَّ لهم فيها.

وفي تلوُّن الحال عند ذلك من العار ما فيه.

لِيكنْ مما تُحْكِمُ من أمرك ألَّا تسارَّ أحدًا من الناس، ولا تهمس إليه بشيء تُخفيه على السلطان أو تُعلنه، فإنَّ السِّرار مما يُخيِّل إلى كل من رآه من ذي سلطان أو غيره أنه المرادُ به، فيكون ذلك في نفسه حَسِيكة[١٩] ووغرًا وثُقْلًا.

---

[١٧] الظنين: المتهم من الظِّنة بالكسر وهي التهمة.

[١٨] من قولهم أعتبني فلان، إذا عاد إلى مسرتي راجعًا عن الإساءة.

[١٩] الحسيكة: الحقد والعداوة، وأمَّا الوغر فشدة الغيظ، من الوغرة التي هي شدة توقد الحر.

مطلبٌ «في تجنب الكَذْبَةِ وتنكب التظاهر بالعمل لدى السلطان»

لا تتهاوننَّ بإرسال الكَذْبَةِ عند الوالي أو غيره في الهزل، فإنها تُسرع في إبطال الحق وردِّ الصدق مما تأتي به.

تنكَّبْ[٢٠] فيما بينك وبين السلطان، وفيما بينك وبين الإخوان؛ خُلُقًا قد عرفناه في بعض الوزراء والأعوان وأصحاب الأبَّهات في ادعاء الرجل — عندما يظهر من صاحبه حُسن أثر أو صواب رأي — أنه عَمِل في ذلك وأشار به، وإقراره بذلك إذا مدحه به مادحٌ، وإنْ استطعتَ أن تُعرِّف صاحبك أنك تَنْحَلُهُ[٢١] صوابَ رأيك — فضلًا عن أنْ تدَّعِي صوابه — وتسنِدَ ذلك إليه وتزيِّنه به فافعل.

فإن الذي أنت آخذ بذلك أكثرُ مما أنت مُعطٍ بأضعاف.

مطلبٌ «في التحذير من الإجابة عن سؤال وجه إلى غيرك»

إذا سأل الوالي غيرَك فلا تكوننَّ أنت المُجيبَ عنه، فإن اسْتِلابَك الكلامَ خِفَّةٌ بك واستخفاف منك بالمسئول وبالسائل.

وما أنت قائل؟ إنْ قال لك السائل: ما إياك سألت، أو قال لك المسئول عند المسألة يُعادُ له بها: دونك فأجب.

وإذا لم يقصد السائل في المسألة لرجل واحد وعمَّ بها جماعة مَن عنده، فلا تُبادرنَّ بالجواب، ولا تُسابق الجُلساء، ولا تُواثِبْ بالكلام مواثبةً؛ فإن ذلك يجمع مع الشَّينِ التكلُّف والخفة.

فإنك إذا سبقتَ القومَ إلى الكلام صاروا لكلامِكَ خُصَمَاء فتعقبوه بالعيب والطعن، وإذا أنت لم تعجَل بالجواب وخليته للقوم، اعْتَرَضتَ أقاويلهم على عينك، ثم تدبَّرتها وفكَّرت فيما عندَك، ثم هيَّأت من تفكيرك ومحاسنِ ما سمعتَ جوابًا رضيًّا، ثم استدبرتَ به أقاويلهم حين تصيخُ إليك الأسماع ويهدأ عنك الخصوم.

وإنْ لم يَبْلُغك الكلام حتى يُكتفى بغيرك، أو ينقطع الحديث قبلَ ذلك، فلا يكون من العيب عندك ولا من الغَبْن في نفسك فَوْتُ ما فاتك من الجواب.

---

[٢٠] أي تجنب.

[٢١] من قولهم نحلته القول: أضفته إليه دون أنْ يكون له فيه أثر.

فإنَّ صيانَة القول خيرٌ من سوء وضعه، وإنَّ كلمةً واحدةً من الصَّواب تُصيبُ موضِعَها خيرٌ من مائة كلمة تقولها في غير فُرَصِها ومواضعها، مع أنَّ كلام العجلة والبدارِ مُوَكَّلٌ به الزَّلل وسوءُ التقدير، وإنْ ظنَّ صاحبُه أنه قد أتقنَ وأحكم.

واعلم أنَّ هذه الأُمور لا تُدرَك ولا تُمْلَك إلَّا برُحْبِ الذَّرْع عند ما قيل وما لم يُقَل، وقلَّةِ الإعظام لما ظهر من المُرُوءة وما لم يَظْهَر، وسَخاوَةِ النفس عن كثيرٍ من الصَّواب؛ مخافة الخلاف ومخافة العجلة ومخافة الحسد ومخافة المِرَاء.

مطلبٌ «في آداب الاستماع»

إذا كلَّمك الوالي فأصغِ إلى كلامه، ولا تَشْغَل طَرْفَك[٢٢] عنه بنظرٍ إلى غيره، ولا أطرافك[٢٣] بعملٍ، ولا قلبك بحديث نفس.

واحذر هذه الخصلة من نفسك، وتعاهدْها بجهدك.

مطلبٌ «في حثِّ الوزير على مصانعة نظرائه»

ارْفُقْ بنُظَرائك من وزراء السلطان وأَخِلَّائه ودُخلائه، واتَّخذهم إخوانًا ولا تتَّخذهم أعداءً، ولا تنافِسْهم في الكلمة يتقربون بها، أو العمل يُؤمَرون به دونك.

فإنَّما أنت في ذلك أحدُ رجلين: إمَّا أنْ يكونَ عندك فضلٌ على ما عند غيرك، فسوف يبدو ذلك ويُحتاج إليه ويُلتمسُ منك، وأنت مُجْمِلٌ.

وإمَّا ألَّا يكون ذلك عندك، فما أنت مصيبٌ من حاجتك عند وزراء السلطان بمُقارَبتك ومُلاءمتك إيَّاهم ومُلاينتِك.

وما أنت واجدٌ في موافقتك إيَّاهم ولِينك لهم من مُوافقتهم إياك ولِينهم لك، أفضل ممَّا أنت مُدركٌ بالمنافسة والمنافرة لهم.

لا تَجْتَرِئَنَّ على خِلاف أصحابك عند الوالي؛ ثِقةً باعترافهم لك ومعرفتهم بفضل رأيك.

---

[٢٢] الطرف: العين.

[٢٣] جمع طرَف بفتحين، وهو من البدن اليدان والرجلان والرأس.

فإنَّا قد رأينا الناس يعترفون بفصل الرجل وينقادون له ويتعلَّمون منه، وهم أَخْلِيَاءُ،[٢٤] فإذا حضروا السلطان لم يرضَ أحدٌ منهم أنْ يُقِرَّ له، ولا أنْ يكون له عليه في الرأي والعِلْم فضلٌ، فاجتَرَأوا عليه بالخلاف والنَّقْض.[٢٥]

فإن ناقضهم صار كأحدهم، وليس بواجدٍ في كل حين سامعًا فَهِمًا أو قاضيًا عَدْلًا.

وإنْ تَرَكَ مناقضتهم كان مغلوبَ الرأي مردودَ القول.

مطلبٌ «في تحذير جليس السلطان من الاستئثار بصحبته»

إذا أصبتَ عند السلطان لُطْفَ منزلة؛ لغَناء[٢٦] يَجِده عندك أو هوًى يكون له فيك، فلا تَطْمحنَّ كلَّ الطِّماح، ولا تُزيِّننَّ لك نفسُك المزايلة[٢٧] له عن أليفه وموضع ثقته وسرِّه قَبْلَك؛ تريد أنْ تقْلَعه وتَدْخُل دونه، فإنَّ هذه خَلَّة من خلال السَّفه قد يُبْتَلى بها الحُلماءُ عند الدُّنُوِّ من السلطان؛ حتى يُحدِّثَ الرجل منهم نفسه أنْ يكون دون الأهل والولد، لفضلٍ يظُنُّه بنفسه أو نقصٍ يظنه بغيره.

ولكلِّ رجلٍ من الملوك أو ذوي هيئةٍ من السُّوقة أليفٌ وأنيسٌ، قد عَرف روحه واطَّلع على قلبه، فليستْ عليه مئونة في تبذُّل يتبذَّله عنده، أو رأيٍ يسْتَبِين منه، أو سرٍّ يفشيه إليه، غير أنَّ تلك الأنَسَة[٢٨] وذلك الإلْف يَسْتخرج من كل واحد منهما ما لم يكن ليظهرَ منه عند الانقباض والتشدُّد، ولو التمس مُلتمسٌ مثل ذلك عند مَن يستأنِف ملاطفته ومؤانسته ومناسمته[٢٩] — وإنْ كان ذا فضل في الرأي وبسطةٍ في العلم — لم يجد عنده مثل ما هو منتفعٌ به ممن هو دون ذلك في الرأي، ممن قد كُفي مؤانستَه ووقع على طباعه.

[٢٤] جمع خلي.

[٢٥] النقض: المناقضة.

[٢٦] لكفاية.

[٢٧] المفارقة.

[٢٨] الأنَسَة بالتحريك: ضد الوحشة.

[٢٩] المناسمة: المسارة.

لأنَّ الأَنَسَةَ رَوْح[٣٠] للقلوب، وأنَّ الوَحْشة رَوْع[٣١] عليها، ولا يَلْتَاط[٣٢] بالقلوب إلَّا ما لانَ عليها، ومَن استقبل الأُنس بالوحشة استقبلَ أمرًا ذا مئونة.

فإذا كلَّفتْك نفسُك السُّمُوَّ[٣٣] إلى منزلة من وصفتُ لك، فاقْدَعْها[٣٤] عن ذلك بمعرفة فضل الأليف والأنيس، وإذا حدَّثْتك نفسك أو غيرُك ممن لعلَّه أنْ يكون عنده فضل في مُرُوءة؛ أنك أولى بالمنزلة عند السلطان من بعض دُخلائه وثقاته، فاذكر الذي على السلطان من حقِّ أليفه وثقته وأنيسه في التكرِمة والمكانة والرأي، والذي يُعينه على ذلك من الرأي أنه يَجِدُ عنده من الألف والأنس ما ليس واجدًا عند غيره.

فليكن هذا مما تتحفَّظ فيه على نفسك وتعرفُ فيه عذر السلطان ورأيه.

والرأي لنفسك مِثلُ ذلك، إن أرادك مريدٌ على الدخول دون أليفك وأنيسك وموضع ثقتك وسرِّك وجِدِّك وهزلك.

واعلم أنه يكاد يكون لكل رجل غالبة حديث لا يزال يُحدِّث به؛ إمَّا عن بلد من البُلدان، أو ضَرْبٍ من ضروب العلم، أو صِنف من صنوف الناس، أو وجه من وجوه الرأي، وعندما يُغرَمُ به[٣٥] الرجل من ذلك يبدُو منه السُّخْف[٣٦] ويُعرَف منه الهوى.

فاجتنب ذلك في كل موطن، ثمَّ عند السلطان خاصَّةً.

مطلبٌ «في كتمان ما تكرهه من رأي السلطان»

لا تَشْكُوَنَّ إلى وزراء السلطان ودُخلائه ما اطَّلعتَ عليه من رأي تكْرهه له، فإنَّك لا تَزِيد على أنْ تفطِّنَهم لهواه، أو تُقرِّبَهم منه وتُغرِيهم بِتَزيين ذلك، والميل عليك معه.

---

[٣٠] الرَّوح بالفتح: الراحة.

[٣١] الروع: الفزع.

[٣٢] يلتصق.

[٣٣] السمو: مفعول آخر لكلف؛ لأن الفعل ينصب اثنين بنفسه أولهما الكاف.

[٣٤] اقدعها: امنعها واكففها، والفعل كمنع.

[٣٥] يولع به ويفتن.

[٣٦] نقص العقل.

واعلم أنَّ الرجلَ ذا الجاه عند السلطان والخاصة، لا محالة أنْ يَرى من الوالي ما يخالفه من الرأي في الناس والأمور، فإذا آثر[٣٧] أنْ يكره كلَّ ما خالفه أوشك أنْ يمتعِض[٣٨] من الجفوة يراها في المجلس، أو النَّبْوَة في الحاجة، أو الرد للرأي، أو الإدناء لمن لا يهوَى إدناءَه، أو الإقصاء لمن يكره إقصاءه.

فإذا وقعتْ في قلبه الكراهية تغيَّر لذلك وجهه ورأيه وكلامه؛ حتى يبدُو ذلك للسلطان وغيره، فيكون ذلك لفساد منزلته ومُرُوءَته سببًا وداعيًا.

فَذلِّلْ نفسَك باحتمال ما خالفك من رأي السلطان، وقرِّرْها على أنَّ السلطان إنما كان سلطانًا لتتَّبِعه في رأيه وهواه وأمرِه، ولا تكلِّفه اتِّباعَك وتغضَبَ من خلافه إياك.

مطلبٌ «في حثِّ الوزير على تصحيح النصيحة»

اعلم أنَّ السلطان يقبل من الوزراء التبخيل،[٣٩] ويَعُدُّه منهم شفقةً ونظرًا له، ويحمَدهم عليه.

فإن كان جوادًا وكنتَ مُبَخِّلًا، شِنْتَ صاحبك بفساد مروءته، وإنْ كنتَ مُسَخِّيًا[٤٠] لم تأمن إضرار ذلك بمنزلتك عنده.

فالرأي لك تصحيح النصيحة على وجهها، والتماسُ المخلَص من العيب واللائمة فيما تترك من تبخيل صاحبك، بألَّا يعرف منك فيما تدعوه إليه ميلًا إلى شيء من هواك، ولا طلبًا لغير ما ترجو أنْ يَزِينه وينفعه.

مطلبٌ «في أنَّ الطالب لصحبة الملوك لا يُفلح حتى يشايعهم ويمالئهم»

لا تكوننَّ صحبتك للملوك[٤١] إلَّا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندَك، وموافقتهم فيما خالفك، وتقدير الأمور على أهوائهم دون هواك، وعلى ألَّا تكتُمَهم سرَّك

[٣٧] آثر: اصطفى واختار.

[٣٨] أي يغضب.

[٣٩] يريد أنَّ السلطان يهوى من الوزراء من يحبب إليه البخل، ويزين له التقتير.

[٤٠] أي محببًا في الكرم والسخاء.

[٤١] أي تذليل.

ولا تستطلِع ما كتموك، وتُخفي ما أطلعوك عليه على الناس كلِّهم حتى تحميَ نفسك الحديث به، وعلى الاجتهاد في رضاهم، والتلطُّف لحاجتهم، والتثبيت لحُجَّتهم، والتصديق لمقالتهم، والتزيين لرأيهم، وعلى قلة الاستقباح لما فعلوا إذا أساءُوا، وترك الانتحال[٤٢] لما فعلوا إذا أحسنوا، وكثرة النشْر لمحاسنهم، وحُسْن السَّتر لمساويهم، والمقاربة لمن قاربوا وإنْ كانوا بُعداء، والمباعدة لمن باعدوا وإنْ كانوا أَقرباء، والاهتمام بأمرهم وإنْ لم يهتمُّوا به، والحفظ لهم وإنْ ضيَّعوه، والذكر لهم وإنْ نَسُوه، والتخفيف عنهم من مئونتك، والاحتمال لهم كلَّ مئونة، والرضى منهم بالعفو، وقلة الرضى من نفسك لهم إلَّا بالاجتهاد.

وإنْ وجدتَ عنهم وعن صحبتهم غنًى، فأغنِ عن ذلك نفسك واعتزلْه جَهْدَك.

فإنَّ من يأخذُ عملهم بحقه، يُحَلْ بينه وبين لذة الدنيا وعمل الآخرة، ومَنْ لا يأخذُ بحقه يحتمل الفضيحةَ في الدنيا والوِزْرَ في الآخرة.

مطلبٌ «في مضار صحبة السلاطين»

إنك لا تأمن أَنَفَة[٤٣] الملوك إنْ علمتهم، ولا تأمن عقوبتهم إنْ كتمتهم، ولا تأمن غضبتهم إنْ صَدَقتهم، ولا تأمن سَلْوَتهم[٤٤] إنْ حدَّثتهم، وإنَّك إنْ لزمتهم لم تأمن تبرُّمهم بك، وإنْ زايلتهم[٤٥] لم تأمن عقابهم، وإنْ تستأمرهم حملتَ المئونة عليهم، وإنْ قطعت الأمر دونهم لم تأمن فيه مخالفتهم، إنهم إنْ سخطوا عليك أهلكوك، وإنْ رَضُوا عنك تكلَّفت من رضاهم ما لا تُطيق.

فإن كنتَ حافظًا إنْ بَلَوْك، جَلْدًا إنْ قرَّبوك، أمينًا إن ائتمنوك؛ تُعَلِّمُهُم وأنت تريهم أنك تتعلم منهم، وتُؤدِّبُهم وكأنهم يؤدبونك، تشكرهم ولا تكلِّفُهم الشكر، بصيرًا بأهوائهم، مُؤثرًا لمنافعهم، ذليلًا إنْ ظلموك، راضيًا إنْ أسخطوك،[٤٦] وإلَّا فالبُعْد منهم كل البُعْدِ والحذر منهم كل الحذر.

---

[٤٢] يريد إن أحسنوا فلا تنسب ذلك إلى نفسك دونهم.

[٤٣] الأنَفة بالتحريك وكذلك الأَنَف: الاستنكاف.

[٤٤] السلوة: التبرم والملل.

[٤٥] زايل: فارق.

[٤٦] جواب إن محذوف يفهم من المقام.

مطلبٌ «في التحذير من الاغترار بالسلطان والمال والعلم والجاه والشباب»

تحرَّزْ من سُكْر السلطان، وسُكْر المال، وسُكْر العلم، وسُكْر المنزلة، وسُكْر الشباب؛ فإنه ليس من هذا شيء إلَّا وهو ريح جِنة تَسْلب[٤٧] العقل، وتذهب بالوقار، وتَصْرِف القلب والسمع والبصر واللسان إلى غير المنافع.

[٤٧] الجِنة بالكسر: الجنون.

المقالة الثانية: في الأصدقاء

الباب الأول

في الأصدقاء

مطلبٌ «في معاملة الناس»

ابْذُلْ لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك[1] رِفْدك[2] ومَحْضَرك، وللعامَّة بِشْرَك وتحنُّنَك، ولعدوِّك عَدْلك وإنصافك.

واضنن بدِينك وعِرْضِك على كل أحد.

مطلبٌ «في تحذير المرء من انتحاله رأي غيره»

إنْ سمعت من صاحبك كلامًا أو رأيتَ منه رأيًا يعجبك، فلا تنتحِلْه تَزَيُّنًا به عند الناس، واكتفِ من التزيُّن بأن تجتني الصَّواب إذا سمعته، وتنسُبَه إلى صاحبه.

واعلم أنَّ انتحالك ذلك مسخطةٌ لصاحبك، وأنَّ فيه مع ذلك عارًا وسُخْفًا.

فإن بلغ بك ذلك أنْ تُشير برأي الرجل وتتكلمَ بكلامه وهو يسمع؛ جَمَعْتَ مع الظلم قِلَّةَ الحياء، وهذا من سُوء الأدب الفاشي في الناس.

ومن تمام حُسن الخُلُق والأدب في هذا الباب، أنْ تَسْخُو نفسُك لأخيك بما انتحلَ من كلامك ورأيك، وتنسُبَ إليه رأيه وكلامه، وتُزيِّنَه مع ذلك ما استطعت.

---

[1] المعرفة: المعارف.

[2] الرِّفْد بالكسر: العطاء.

ولا يكوننَّ من خُلُقِك أنْ تبتدئ حديثًا ثم تقطعه وتقول: سوف، كأنك رَوَّأتَ[٣] فيه بعد ابتدائك إياه، وليكن تروِّيك فيه قبل التفوُّه به، فإن احتجان[٤] الحديث بعد افتتاحه سُخْف وغمٌّ.

مطلبٌ «في الحضِّ على تخير المواضع لرأيك»

اخزُنْ عقلك وكلامك إلَّا عند إصابة الموضع؛ فإنه ليس في كلِّ حين يحسُنُ كلُّ صواب، وإنما تمام إصابة الرأي والقول بإصابة الموضع، فإن أخطأك ذلك أدخلتَ المِحنة[٥] على عقلك وقولك حتى تأتي في موضعه، وإنْ أتيت به في غير موضعه، أَتَيْتَ به وهو لا بَهاء ولا طُلاوة له.

وليعرفِ العلماء حين تُجالسهم أنَّك على أنْ تسمعَ أحرص منك على أنْ تقول.

مطلبٌ «في تجنب الهزل ولو كان مزاحًا ما لم تكبت به عدوًّا»

إن آثرتَ أنْ تُفاخر أحدًا ممن تستأنِس إليه في لَهْو الحديث، فاجعلْ غاية ذلك الجِدَّ، ولا تعتدْ أنْ تتكلم فيه بما كان هزلًا، فإذا بلغه أو قارَبَه فدَعْه.

ولا تخلطنَّ بالجدِّ هزلًا، ولا بالهزل جدًّا؛ فإنك إنْ خلطت بالجد هزلًا هجَّنته، وإنْ خلطت بالهزل جدًّا كدرته.

غير أني قد علِمْتُ مَوْطنًا واحدًا إنْ قدرت أنْ تستقبل فيه الجِدَّ بالهزل، أصبتَ الرأي وظهرتَ على الأقران؛ وذلك أنْ يتورَّدَك[٦] متورِّدٌ بالسفه والغضب وسُوء اللفظ، فتجيبه إجابة الهازل المداعب، بُرحْبٍ من الذَّرْع، وطلاقةٍ من الوجه، وثباتٍ من المنطق.

---

[٣] روَّأ في الأمر بالهمز: إذا نظر فيه وتدبره، ومنه الرويَّة من غير همز، وهي الفكر مع التدبر.

[٤] من قولهم احتجن المال: ضمه إلى نفسه وأمسكه.

[٥] المحنة البلية.

[٦] يقال تورَّده: طلب وروده وحضوره.

مطلبٌ «في أن لا خوف عليك من أخي الثقة أنْ يخالط العدو»

إنْ رأيت صاحبك مع عدوِّك فلا يُغضبنَّك ذلك؛ فإنما هو أحد رجلين: إنْ كان رجلًا من إخوان الثقة فأنفعُ مَواطِنه لك أقربُها من عدوِّك؛ لشَرٍّ يكفه عنك أو لعورة يسترها منك، أو غائبة يطَّلع عليها لك، فأمَّا صديقك فما أغناك أنْ يحضره ذو ثقتك.

وإنْ كان رجلًا من غير خاصَّة إخوانك، فبأي حقٍّ تقطعه عن الناس وتُكَلِّفه ألَّا يُصاحب ولا يُجالس إلَّا مَن تهوى؟

تحفَّظ في مجلسك وكلامك من التطاول على الأصحاب، وطِبْ نفسًا عن كثير ممَّا يعرِض لك فيه صوابُ القول والرأي، مداراةً لأَنْ يظُنَّ أصحابك أنَّك إنما تُريد التطاول عليهم.

مطلبٌ «في التحفظ من الصديق المقبل بوده»

إذا أقبل إليك مُقبلٌ بِوُدِّهِ فَسَرَّك ألَّا يُدبر عنك، فلا تُنعِم الإقبال عليه والتفتُّح له؛ فإن الإنسان طُبع على ضرائب لُؤم، فمن شأنه أنْ يرحل عمَّن لَصِق به، ويلصق بمن رحل عنه إلَّا من حفِظ بالأدب نفسَه وكابر طبعَه.

فتحفظ من هذا فيك وفي غيرك.

مطلبٌ «في أنَّ الدَّعِيَّ لا محالة مفضوح»

لا تُكثِرنَّ ادِّعاء العلم في كل ما يعرِض بينك وبين أصحابك، فإنَّك من ذلك بين فضيحتين: إمَّا أنْ ينازعوك فيما ادَّعيتَ؛ فيُهْجَم منك على الجهالة والصَّلَف.[٧]

وإمَّا ألَّا ينازعوك ويُخَلُّوا في يديك ما ادَّعيت من الأمور، فينكشفَ منك التصنُّع والمَعْجَزَةُ.

واستحِ الحياءَ كلَّه من أنْ تخبر صاحبك أنَّك عالم وأنه جاهل؛ مصرِّحًا أو مُعَرِّضًا.

وإنْ استطلت على الأكْفَاء فلا تثقنَّ منهم بالصفاء.

---

[٧] الصَّلف بالتحريك: العُجْب ومجاوزة حد الظرف.

وإنْ آنست من نفسك فضلًا فتحرَّج أنْ تذكره أو تُبْديه، واعلم أنَّ ظهوره منك بذلك الوجه يقرِّر لك في قلوب الناس من العيبِ أكثرَ مما يقرِّر لك من الفضل.

واعلم أنَّك إنْ صبرت ولم تَعْجَلْ ظهر ذلك منك بالوجه الجميل المعروف عند الناس.

ولا يَخفَيَنَّ عليك أن حرص الرجل على إظهار ما عنده، وقِلَّةَ وقاره في ذلك بابٌ من أبواب البخل واللؤم.

وأنَّ من خير الأعوان على ذلك السخاءَ والتكرُّمَ.

وإنْ أردت أنْ تَلبَسَ ثوب الوقار والجمال، وتتحلَّى بحلية المودَّة عند العامة، وتسلك الجَدَدَ[8] الذي لا خَبار[9] فيه ولا عثَار، فكن عالمًا كجاهل وناطقًا كعييٍّ.

فأمَّا العلم فيزينك ويرشدك، وأمَّا قلة ادعائه فينفي عنك الحسدَ، وأمَّا المنطق «إذا احتجت إليه» فيبلغك حاجتك، وأمَّا الصمت فيكسبك المحبة والوقار.

وإذا رأيت رجلًا يحدِّث حديثًا قد علمته أو يُخبر خبرًا قد سمعته، فلا تشاركه فيه ولا تتعقبه عليه، حِرصًا على أنْ يَعلم الناس أنك قد علمته، فإنَّ في ذلك خِفةً وشُحًّا وسوء أدب وسُخْفًا.

ولْيعرف إخوانُك والعامة أنك «إنْ استطعت» إلى أنْ تفعل ما لا تقول، أقربُ منك إلى أنْ تقول ما لا تفعل.

فإن فضلَ القول على الفعل عارٌ وهُجنةٌ، وفضل الفعل على القول زينةٌ.

وأنت حقيقٌ فيما وعدتَ من نفسك، أو أخبرت به صاحبك أنْ تحتجن بعض ما في نفسك؛ إعدادًا لفضل الفعل على القول، وتحرُّزًا بذلك عن تقصير فعل إن قصَّر، وقلما يكون إلَّا مقصِّرًا.

مطلبٌ «في أنَّ واجب المرء نحو عدوه العدل ونحو صديقه الرضاء»

احفظ قول الحكيم الذي قال: لتكن غايتُك فيما بينك وبين عدوِّك العدل، وفيما بينك وبين صديقك الرضاء.

---

[8] الجدد: الطريق.

[9] الخبار بالفتح: الأرض الرخوة يصعب سلوكها.

وذلك أنَّ العدوَّ خَصْمٌ تَصْرَعه بالحجة، وتغلِبه بالحكام، وأنَّ الصديق ليس بينك وبينه قاض، فإنما حَكَمُه رضاه.

مطلبٌ «في التثبُّت من الصديق قبل الإقدام عليه»

اجعل غاية تشبُّثك في مؤاخاة مَن تؤاخي، ومواصلة من تواصل توطينَ نفسك على أنه لا سبيل لك إلى قطيعة أخيك، وإنْ ظهر لك منه ما تكره، فإنه ليس كالمملوك تُعتِقه متى شئت، أو كالمرأة التي تطلقها إذا شئت، ولكنَّه عِرضُك ومروءتك، فإنما مُروءة الرجل إخوانه وأخدانه، فإن عَثَر الناس على أنك قطعتَ رجلًا من إخوانك، «وإنْ كنت مُعذرًا» نزل ذلك عند أكثرهم بمنزلة الخيانة للإخاء والمَلال فيه، وإنْ أنت مع ذلك تصبَّرت على مُقارَّته على غير الرضَى، عاد ذلك إلى العيب والنقيصة.

فالاتئادَ الاتئاد! والتثبُّتَ التثبُّت!

وإذا نظرت في حال من ترتئيه لإخائك، فإن كان من إخوان الدين، فليكن فقيهًا غير مُراء ولا حريصٍ، وإنْ كان من إخوان الدنيا، فليكن حرًّا ليس بجاهل ولا كذاب ولا شِرِّير ولا مشنوع.[١٠]

فإن الجاهلَ أهلٌ أنْ يهربَ منه أبواه، وإنَّ الكذَّاب لا يكون أخًا صادقًا؛ لأن الكذب الذي يجري على لسانه إنما هو من فضول كذِب قلبه، «وإنما سمي الصديق من الصدق، وقد يُتَّهم صِدق القلب وإن صدق اللسان، فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان؟» وإن الشرِّير يَكسِبُك العدوَّ، ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة، وإنَّ المشنوع شانعٌ[١١] صاحبه.

واعلم أنَّ انقباضك عن الناس يكسبك العداوة، وأنَّ انبساطك[١٢] إليهم يكسبك صديق السوء، وسوءُ الأصدقاء أضرُّ من بغض الأعداء، فإنك إنْ واصلتَ صديق السوء أعْيَتْك جرائره،[١٣] وإن قطعته شانَك اسم القطيعة، وألزمك ذلك من يرفع عيبَك ولا ينشرُ عُذرَك، فإن المعايب تَنْمي والمعاذيرَ لا تنمي.

---

[١٠] المتنوع: الذي يجر على نفسه ما جلب التشنيع والتعبير.

[١١] فاضح.

[١٢] الانبساط: ضد الانقباض ويريد البعد والقرب.

[١٣] الجرائر: جمع جريرة، وهي ما يجنيه الرجل على نفسه أو غيره.

مطلبٌ «فيما ينبغي للعاقل أنْ يسلكه إزاء العامة والخاصة»

الْبَسْ للناس لباسين ليس للعاقل بُدٌّ منهما، ولا عيشَ ولا مروءة إلَّا بهما: لباسَ انقباض واحتجاز من الناس، تلبسه للعامة فلا يلقَوْنَك إلَّا متحفِّظًا متشددًا متحرِّزًا مستعدًّا.

ولباسَ انبساط واستئناس، تلبسه للخاصة الثقات من أصدقائك؛ فتلقاهم بذات صدرك وتُفضي إليهم بمصون حديثك، وتضع عنك مئونة الحَذَر والتحفُّظ فيما بينك وبينهم.

وأهل هذه الطبقة — الذين هم أهلها — قليلٌ من قليل حقًّا؛ لأن ذا الرأي لا يُدخل أحدًا من نفسه هذا المَدْخَل إلَّا بعد الاختبار والتكشُّف، والثقة بصدق النصيحة ووفاء العهد.

مطلبٌ «فيما ينبغي للعاقل أنْ يغلبه على لسانه»

اعلم أنَّ لسانك أداةٌ مُصْلَتَةٌ، يتغالب عليه عقلك وغضبك وهواك وجهلك، فكلٌّ غالب عليه مستمع به وصارفه في محبته، فإذا غلب عليه عقلك فهو لك، وإنْ غلب عليه شيءٌ من أشباه ما سمَّيتُ لك فهو لعدوك.

فإن استطعت أنْ تحتفظ به وتصونه فلا يكون إلَّا لك، ولا يستولي عليه أو يشاركك فيه عدوُّك فافعل.

مطلبٌ «في الحض على مواساة الصديق عند النوائب»

إذا نابتْ أخاك إحدَى النوائب من زوال نعمة أو نزول بليَّة، فاعلم أنك قد ابتُليت معه؛ إمَّا بالمؤاساة فتشاركه في البليَّة، وإمَّا بالخذلان فتحتمل العار.

فالتمس المَخرج عند أشباه ذلك، وآثر مُرُوءَتك على ما سواها.

فإن نزلت الجائحة التي تأبى نفسُك مشاركة أخيك فيها فأجمل،[١٤] فلعل الإجمال يَسَعُك؛ لقلَّة الإجمال في الناس.

---

[١٤] يريد: اصنع الجميل.

مطلبٌ «ينبغي لصديق السلطان ألَّا يدل عليه بقدمه»

إذا أصاب أخوك فضلَ منزلة أو سلطان، فلا تُرِيَنَّه أنَّ سلطانه قد زادك له وُدًّا، ولا يعرفنَّ منك عليه بماضي إخائك تدلُّلًا، وأَرِه أنَّ سلطانه زادك له توقيرًا وإجلالًا من غير أنْ يقدِر أنْ يزيده وُدًّا ولا نُصحًا، وأنك ترى حقًّا للسلطان التوقيرَ والإجلال، فكُن في المداراة له والرفق به كالمؤتنف لما قبله، ولا تقدِّر الأمور فيما بينك وبينه على شيء مما كنت تعرِف من أخلاقه، فإنَّ الأخلاقَ مستحيلة[١٥] مع السلطان، وربما رأينا الرجل المُدِلَّ على السلطان بقِدَمِه قد أضرَّ به قِدَمُه.

مطلبٌ «فيمن يجوز أنْ تعتذر إليه أو تحدثه»

لا تعتذرنَّ إلَّا إلى مَن يحب أنْ يجد لك عذرًا، ولا تستعينَّ إلَّا بمن يُحب أنْ يُظفِرَك[١٦] بحاجتك، ولا تُحدِّثنَّ إلَّا من يرى حديثك مَغْنَمًا، ما لم يغلِبْك اضطرارٌ.

وإذا اعتذر إليك معتذرٌ، فتلقَّه بوجهٍ مُشْرق وبِشْرٍ ولسان طَلْقٍ[١٧] إلَّا أنْ يكون ممن قطيعته غنيمة.

إذا غَرَست من المعروف غَرسًا، وأنفقت عليه نفقةً فلا تَضِنَّنَّ في تربية ما غرست واستنمائه، فتذهب النفقة الأولى ضَياعًا.[١٨]

---

[١٥] أي من شأنها الانتقال والتحول من قولهم: استحالت الأرض اعوجَّت وخرجت عن الاستواء.

[١٦] من الظَّفَر بالتحريك وهو الفوز بالمطلوب، وتقول منه أظفرني فلان بكذا، وعلى كذا: أعانني على الفوز بمطلوبي.

[١٧] ش: طليق.

[١٨] وقد كتب الشنقيطي في نسخته إزاء هذا بخطه ما نصه:

عندي حدائق ود غرس أنعمكم   قد مسَّها عطش فليسق من غرسا
تداركوها وفي أغصانها رمق   فلن يعود اخضرار العود إنْ يبسا

مطلبٌ «في الحرص على اتحاد الإخوان وتعهد المعروف»

اعلم أنَّ إخوان الصدق هم خير مكاسب[١٩] الدنيا، هم زينةٌ في الرخاء، وعُدَّةٌ في الشدة، ومعونةٌ على خير المعاش والمعاد، فلا تُفرطنَّ في اكتسابهم وابتغاء الوُصُلات[٢٠] والأسباب إليهم.

واعلم أنك واجدٌ رغبتك من الإخاء عند أقوام قد حالتْ بينك وبينهم بعض الأُبَّهة،[٢١] التي قد تعتري بعض أهل المروءات فتحجز عنهم كثيرًا ممن يرغب في أمثالهم، فإذا رأيت أحدًا من أولئك قد عَثَر به الدهر، وعَرفتَ نفسك أنه ليس عليك في دُنوِّك منه، وابتغائك مودَّته وتواضعك له؛ مذلَّةٌ، فاغتنم ذلك منه واعمل فيه.

مطلبٌ «في أنَّ إحياء المعروف بنسيانه والتصغير له»

إذا كانت لك عند أحد صنيعةٌ[٢٢] أو كان لك عليه طَوْلٌ،[٢٣] فالتمس إحياء ذلك بإماتته، وتعظيمه بالتصغير له، ولا تقتصرنَّ في قلة المنِّ[٢٤] به على أنْ تقول: لا أذكُرُهُ ولا أصغي بسمعي إلى مَن يذكره، فإن هذا قد يستحي منه بعض من لا يوصف بعقل ولا كَرَم، ولكن احذر أنْ يكون في مجالستك إيَّاه، وما تُكلِّمه به أو تستعينه عليه أو تُجاريه فيه؛ شيءٌ من الاستطالة فإن الاستطالة تهدم الصنيعة وتُكدِّر المعروف.

---

[١٩] جمع مكسب وهو اسم لما يكتسبه الإنسان من الرزق.

[٢٠] جمع وُصلة بالضم وهي الاتصال.

[٢١] الأبهة كسكرة: العظمة والجلال.

[٢٢] ما اصطنعته من الخير.

[٢٣] الفضل.

[٢٤] هو تعدادك النِّعم على مَن أحسنت إليه.

مطلبٌ «في علاج انفعالات النفس والاحتراس منها»

احترس من سَوْرة الغضب، وسَوْرة الحمية، وسَوْرة الحقد، وسَوْرة الجهل،[٢٥] وأعدِدْ لكلِّ شيء من ذلك عُدَّةً تجاهده بها من الحلم، والتفكُّر، والرويَّة،[٢٦] وذِكر العاقبة، وطلب الفضيلة.

واعلم أنَّك لا تُصيبُ الغلبة إلَّا بالاجتهاد والفضل، وأنَّ قلة الإعداد لمدافعة الطبائع المتطلعة هو الاستسلام لها، فإنه ليس أحدٌ من الناس إلَّا وفيه من كل طبيعةٍ سوء غريزة، وإنما التفاضل بين الناس في مغالبة طبائع السوء.

فأمَّا أنْ يَسْلم أحدٌ من أنْ تكون فيه تلك الغرائز فليس في ذلك مطمعٌ، إلَّا أنَّ الرجل القويَّ إذا كابرها بالقمع[٢٧] لها كلما تطلَّعتْ لم يلبث أنْ يُميتها حتى كأنها ليست فيه، وهي في ذلك كامنة كُمون النار في العود، فإذا وَجَدت قادحًا[٢٨] من علة، أو غفلةً استورت[٢٩] كما تستوري النار عند القدح، ثم لا يبدأ ضرُّها إلَّا بصاحبها، كما لا تبدأ النار إلَّا بعُودها الذي كانت فيه.

مطلبٌ «في الصبر على من يلازمك وبيان أنواعه ومعناه»

ذَلِّلْ نفسك بالصبر على جار السوء، وعشير السوء، وجليس السوء؛ فإن ذلك مما لا يكاد يُخْطِئُك.

واعلم أنَّ الصبر صبران: صبرٌ المرء على ما يكرَهُ، وصبره عما يُحِبُّ.

والصبر على المكروه أكبرهما[٣٠] وأشبههما أنْ يكون صاحبه مُضطَرًّا.

واعلم أنَّ اللئام أصبر أجسادًا، وأنَّ الكرام هم أصبر نفوسًا.

---

[٢٥] الجهل هنا هو ضد العلم.

[٢٦] الفكر والتدبر وهي كلمة جرت على ألسنتهم بغير همز؛ تخفيفًا من روأت في الأمر بالهمز إذا نظرت فيه.

[٢٧] القهر والإذلال.

[٢٨] من قدح بالزند: رام إخراج ناره.

[٢٩] من الورى وهو اتقادها واستعارها.

[٣٠] ويروى: أكثرهما.

وليس الصبر الممدوح بأن يكون جِلْدُ الرجل وَقَاحًا[٣١] على الضرب، أو رِجلُه قويَّة على المشي، أو يدُه قويةً على العمل؛ فإنما هذا من صفات الحَمير.

ولكنَّ الصبر الممدوح أنْ يكون للنفس غَلُوبًا، وللأمور محتملًا، وفي الضَّرَّاء متجمِّلًا،[٣٢] ولنفسه عند الرأي والحِفاظ[٣٣] مرتبطًا،[٣٤] وللحزم مُؤْثِرًا، وللهوى تاركًا، وللمشقة التي يرجو حسن عاقبتها مستخفًّا، ولنفسه على مجاهدة الأهواء والشهوات مُوَطِّنًا[٣٥] ولبصيرته بعزمه مُنفِّذًا.[٣٦]

مطلبٌ «في ترغيب النفس في العلم وبيان الأنفع منه»

حبِّبْ إلى نفسك العلْمَ حتى تلزمه وتألفه، ويكون هو لهْوَك ولذَّتك وسلوتك وتعلُّلَك[٣٧] وشهوتك.

واعلم أنَّ العلم علمان: علمٌ للمنافع، وعلمٌ لتذكية[٣٨] العقول.

وأفشى العِلْمين وأجداهما[٣٩] أنْ يَنْشطَ له صاحبه من غير أنْ يُحَضَّ عليه علمُ المنافع، والعلمُ الذي هو ذكاء العقول وصِقالها وجلاؤُها، فضيلة منزلةٍ عند أهل الفضيلة والألباب.

---

[٣١] أي فيه صلابة وكثرة احتمال.

[٣٢] من التجمل وهو التزين، يريد أنه لا يذل ولا يتخشع ولا يستكين.

[٣٣] الحِفاظ: الغضب والاسم الحفيظة.

[٣٤] من الارتباط وهو تسكين النفس وتثبيتها.

[٣٥] يقال وطَّن نفسه على الأمر توطينًا: ذلَّلها ومهدها لفعله.

[٣٦] ممضيًا، من أنفذ الأمر أو القول: أمضاه وأبرمه.

[٣٧] تعلل بالأمر: تشاغل، وبالمرأة: تلهى، وعلله بطعام وغيره: شغله به، والتعلة والعلالة بالضم: ما يتعلل به.

[٣٨] من الذكاء وهو سرعة الفهم.

[٣٩] أكثرهما.

مطلبٌ «في أقسام السخاء وتحبيب النفس إليه»

عوِّدْ نفسك السخاء.[٤٠]

واعلم أنه سخاءان: سَخاوةُ نفس الرجل بما في يديه، وسخاوته[٤١] عما في أيدي الناس.

وسخاوة نفس الرجل بما في يديه أكثرهما وأقربهما من أنْ تدخل فيه المفاخرة، وتركه ما في أيدي الناس أمحضُ في التكرُّم وأبرأ من الدَّنَس وأنزه.

فإن هو جمعهما فَبَذَلَ وعفَّ فقد استكمل الجود والكرم.

مطلبٌ «في ذم الحسد وذكر ما يُنجي منه»

ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألَّا تكون حسودًا.

فإن الحسد[٤٢] خُلُقٌ لئيمٌ، ومن لؤمه أنه موكَّل[٤٣] بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكْفاء والمعارف والخُلَطاء والإخوان.

فليكن ما تعامل[٤٤] به الحسد أنْ تعلم أنَّ خير ما تكونُ حين تكون مع من هو خير منك، وأنَّ غُنْمًا حسنًا لك أنْ يكون عشيرك وخليطك أفضلَ منك في العلم فتقتبس من علمه، وأفضل منك في القوَّة فيدفع عنك بقوته، وأفضل منك في المال فتُفيدَ[٤٥] من ماله، وأفضل منك في الجاه فتُصيبَ حاجتك بجاهه، وأفضلَ منك في الدِّين فتزدادَ صلاحًا بصلاحه.

---

[٤٠] الجود والكرم.

[٤١] يقال سخت نفسي عن كذا إذا تركته عن رغبة ومطاوعة.

[٤٢] هو تمني أنْ تتحول نعمة المحسود وفضيلته إلى الحاسد أو يسلبهما.

[٤٣] ملازم.

[٤٤] لعله يريد: فليكن ما تقابل به الحسد، أو تعالج إلخ، وإنْ كانت هذه الكلمة مستعملة في عُرف الأمصار بمعنى التصرف من بيع ونحو، ولم تكن في استعمال العرب.

[٤٥] أفاده واستفاده وتفيده بمعنى واحد وهو اقتناه.

مطلبٌ «في التحذير من أن تكاشف عدوك أو حاسدك بدخيلة نفسك»

ليكن مما تنظر فيه من أمر عدوِّك وحاسدك، أن تعلم أنه لا ينفعُك أنْ تخبر عدوَّك وحاسدَك أنَّك له عدوٌّ، فتُنْذِرَه بنفسك، وتُؤذِنه بحربك قبل الإعداد والفرصة، فتحمله على التسلُّح لك، وتُوقِد ناره عليك.

واعلم أنَّه أعظمُ لخطرك[٤٦] أنْ يرى عدوُّك أنك لا تتخذه عدوًّا، فإن ذلك غِرَّةٌ[٤٧] له وسبيلٌ لك إلى القدرة عليه، فإن أنت قدرت واستطعت اغتفار العداوة عن أن تكافئ بها فهنالك استكملت عظيمَ الخَطَر.

مطلبٌ «في مكافأة العدو وبيان الحيلة في تفريق الناس عنه»

إنْ كنت مُكافئًا بالعداوة والضرر، فإيَّاك أنْ تكافئ عداوة السرِّ بعداوة العلانية، وعداوة الخاصَّة بعداوة العامة، فإن ذلك هو الظلم.

واعلم مع ذلك أنَّه ليس كل العداوة والضرر يُكافأ بمثله: كالخيانة لا تُكافأ بالخيانة، والسرقة لا تكافأ بالسرقة.

ومن الحيلة في أمرك مع عدوِّك أنْ تصادق أصدقاءه وتؤاخي إخوانه، فتدخل بينه وبينهم في سبيل الشقاق والتلاحي[٤٨] والتجافي؛ حتى ينتهي ذلك بهم إلى القطيعة والعداوة له، فإنَّه ليس رجلٌ ذو طَرْق[٤٩] يمتنع من مؤَاخاتك إذا التمست ذلك منه، وإنْ كان إخوان عدوِّك غير ذوي طَرْق فلا عدوَّ لك.

مطلبٌ «في الحضِّ على الوصول إلى مثالب العدو وكتمها عنه»

لا تَدَعْ — مع السكوت عن شتم عدوك — إحصاء[٥٠] مثالبه ومعايبه ومعايره[٥١] واتِّباع عوراته؛ حتى لا يشذُّ عنك من ذلك صغير ولا كبير، من غير أن تشيع ذلك عليه فيتَّقيك

[٤٦] الخطر: الشرف ورفعة القدر.

[٤٧] الغفلة.

[٤٨] التلاحي: التنازع ويقال لاحاه ملاحاة: نازعه، والتجافي من قولك: تجافى فلان: لم يلزم مكانه.

[٤٩] الطَّرْق بالفتح: ضعف العقل.

[٥٠] العد والحفظ، ومنه تقول أحصى فلان كذا: عده وحفظه وعقله.

[٥١] المعايب، واتباع العورات: تطلبها واستقصاؤها.

به، ويستعدَّ له، ولا تذكره في غير موضعه، فتكون كمستعرض الهواءَ بنَبْلِه[٥٢] قبل إمكان الرمي.

ولا تتخذنَّ اللعن والشتم على عدوِّك سلاحًا؛ فإنه لا يجرح في نفسٍ، ولا منزلةٍ، ولا مال، ولا دِينٍ.

مطلبٌ «في الحضِّ على كتمان دهائك عن الناس»

إنْ أردت أنْ تكون داهيًا[٥٣] فلا تُحبَّنَّ أنْ تسمَّى داهيًا؛ فإنه مَن عُرِفَ بالدهاء خاتل[٥٤] علانيةً، وحذِرَه الناس[٥٥] حتى يمتنع منه الضعيف ويتعرَّض له القويُّ.

وإنَّ من إرْب[٥٦] الأريب دفنُ[٥٧] إرْبه ما استطاع حتَّى يُعْرف بالمسامحة في الخليقة والاستقامة في الطريقة.

ومن إرْبه ألَّا يوارب[٥٨] العاقل المستقيم الطريقة، والذي يطلع على غامض إربه فيَمْقُته عليه.

وإنْ أَردتَ السلامة فأَشْعِر قلبك الهيبة[٥٩] للأمور، من غير أنْ تَظهرَ منك الهيبة، فتُفطنهم بنفسك، وتجرِّئَهم عليك، وتدعو إليك منهم كلَّ الذي تهاب.

فاشْعَبْ[٦٠] لمداراة ذلك من كتمان الهيبة وإظهار الجُرأة[٦١] والتهاون طائفة[٦٢] من رأيك.

---

[٥٢] النبل بفتح النون وسكون الباء الموحد: هي السهام لا واحد لها، والجمع نبال.

[٥٣] من الدهي، وهو الفكر، وجودة الرأي، وهو الدهاء أيضًا.

[٥٤] خادع.

[٥٥] أي احترزوا منه.

[٥٦] الإرب بكسر الهمزة: الدهاء والعقل.

[٥٧] أي ستره ومواراته.

[٥٨] من المواربة: المداهاة والمخاتلة.

[٥٩] الهيبة: المخافة والتقية.

[٦٠] أي فاجمع، والمفعول هو قوله في آخر الجملة: طائفة من رأيك.

[٦١] الشجاعة والإقدام، والتهاون: الاستخفاف وعدم المبالاة.

[٦٢] الطائفة من الشيء: القطعة منه وما هنا على المجاز والسعة.

وإنْ ابتُليتَ بمحاربة عدوك فحالفْ[٦٣] هذه الطريقة التي وصفتُ لك من استشعار الهيبة وإظهار الجُرأة والتهاون، وعليك بالحذر والجِدِّ في أمرك، والجُرأة في قلب؛ حتى تملأ قلبَك جَراءةً ويستفرِغَ عملك الحذر.

مطلبٌ «في أحوال الأعداء وبيان السبيل التي تصل بك إلى قهرهم والغلبة عليهم»

اعلم أنَّ من عدوِّك من يعمل في هلاكك، ومنهم من يعمل في مصالحتك، ومنهم من يعمل في البعد منك.

فاعرفهم على منازلهم.

ومن أقوى القوَّة لك على عدوِّك، وأعزِّ أنصارك في الغلبة له؛ أنْ تُحصيَ على نفسكَ العيوبَ والعوراتِ، كما تحصيها على عدوِّك، وتنظر عند كل عيب تراه أو تسمعه لأحدٍ من الناس: هل قارفت[٦٤] ذلك العيبَ أو ما شاكله؟ أو سلِمْت منه.

فإن كنت قارفتَ شيئًا منه جعلته مما تُحْصِي على نفسك، حتى إذا أحصيتَ ذلك كلَّه فكاثِر[٦٥] عدوَّك بإصلاح نفسك وعثراتك،[٦٦] وتحصين عوراتك وإحراز مقاتلك.

وخُذْ نفسك بذلك مُمْسيًا ومُصْبِحًا.

فإذا آنست منها[٦٧] دفعًا له وتهاونًا به،[٦٨] فاعدُدْ نفسك عاجزًا ضائعًا خائبًا، مُعْوِرًا[٦٩] لعدوِّك، مُمْكِنًا[٧٠] له من رمْيك.

[٦٣] أي التزم هذه الطريقة ولا تعدل عنها.

[٦٤] أي أتيت مثله وارتكبته.

[٦٥] المكاثرة: المغالبة.

[٦٦] جمع عثرة وهي هنا: الزلة والسقوط في الإثم.

[٦٧] أي أبصرت وأحسست من نفسك.

[٦٨] الضميران في كلمتي «له، به» يعودان على إحصاء الإنسان عيوبه.

[٦٩] من أعور الفارس: إذا بدا فيه موضع خلل للضرب.

[٧٠] يقال مكنت فلانًا من الشيء، وأمكنته إذا جعلت له سلطانًا عليه وقدرة فتمكن منه.

مطلبٌ «في دواء ما يُستعصَى عليك إصلاحه من أدواء نفسك»

وإنْ حصل من عيوبك وعوراتك ما لا تقدِر على إصلاحه من ذنبٍ مضى لك، أو أمرٍ يعيبُك عند الناس، ولا تراه أنت عيبًا، فاحفظ ذلك، واجعله نُصْبَ عينيك[٧١] ولا تقل: وما عسى يقول فيَّ القائل! فاعلم أنَّ عدوَّك مُريدُك بذلك، فلا تغفل عن التَّهيُّؤ له بحيلتك فيه سرًّا وعلانيةً، وعن الإعداد لقوَّتك وحُجتك من نسبك ومثالب آبائك أو عيب إخوانك وأخدانك.

فأمَّا الباطل فلا تَرُوعَنَّ به قلبَك ولا تستَعِدَّنَّ له ولا تشتغلنَّ بشيءٍ من أمره، فإنه لا يَهُولك ما لم يقع، وما إنْ وقع اضمحل.

مطلبٌ «في أنَّ ما في نفسك تظهر آثاره عليك إذا فوجئت به»

واعلم أنه قلَّما بُدِهَ[٧٢] أحد بشيء يعرفه من نفسه — وقد كان يطمع في إخفائه عن الناس — فيُعَيِّرُه[٧٣] به مُعَيِّرٌ عند السلطان أو غيره، إلا كاد يشهَد به عليه وجهُه وعينُه ولسانُه للذي يبدو منه عند ذلك، والذي يكون من انكساره وفتُوره عند تلك البديهة.

فاحذر هذه وتصنَّع لها، وخُذْ أُهبتك لبغَتَاتها[٧٤] وتقدَّم في أخذ العتاد لنفيها.

مطلبٌ «في ذمِّ الغرام بالنساء والتحذير منه»

اعلمْ أنَّ مِن أوقع[٧٥] الأمور في الدِّين، وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأقتلها للعقل، وأزراها[٧٦] للمروءة، وأسرعها في ذهاب الجلالةِ والوقارِ؛ الغرامُ[٧٧] بالنساء.

---

[٧١] أي الغاية التي يتجه إليها نظرك.

[٧٢] بدهة بأمر: استقبله به مفاجأة.

[٧٣] يقال عيرت فلانًا كذا: إذا نسبته إليه وقبحته عليه، ولا يجوز أنْ تقول عيرته بكذا؛ لأن المستعمل في كلامهم عيرته الأمر متعديًا بنفسه، بخلاف المصباح.

[٧٤] جمع بغتة وهي الفجأة.

[٧٥] هذا اللفظ مستعار من وقعة الحرب، وهي الصدمة بعد الصدمة، والاسم الوقيعة والواقعة.

[٧٦] من قولهم ذرى عليه: نقصه وعابه، والمروءة: آداب نفسانية تحمل الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات.

[٧٧] الولوع بالشيء والاستهتار به.

ومن البلاء على المُغْرَم بهنَّ أنَّه لا ينفك يأجمُ[٧٨] ما عنده، وتطمحُ[٧٩] عيناه إلى ما ليس عنده منهنَّ.

وإنما النساء أشباهٌ.

وما يَتَزَيَّنُ في العيون والقلوب من فضْل مجهولاتهنَّ على معروفاتهنَّ باطلٌ وخُدْعةٌ، بل كثير مما يَرْغَبُ عنه الراغب مما عنده أفضلُ مما تتوق إليه نفسه منهنَّ.

وإنما المرتغِبُ[٨٠] عما في رَحله منهنَّ إلى ما في رِحال الناس كالمرتغِبِ عن طعام بيته إلى ما في بيوت الناس، بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام، وما في رحال الناس من الأطعمة أشدُّ تفاضلًا وتفاوتًا مما في رحالهم من النساء.[٨١]

ومن العَجَب أنَّ الرجل الذي لا بأس بلُبِّهِ ورأيه يرى المرأة من بعيد متلفِّفَةً في ثيابها، فيصوِّرُ لها في قلبه الحسنَ والجمالَ حتى تَعْلَقَ بها نفسُه من غير رُؤية ولا خَبَرٍ مُخبِرٍ، ثم لعله يهجم منها على أقبح القُبح وأذَمِّ الدَّمامة، فلا يعظه[٨٢] ذلك، ولا يقطعه عن أمثالها، ولا يزال مشعوفًا[٨٣] بما لم يذُق، حتى لو لم يبقَ في الأرض غيرُ امرأةٍ واحدةٍ لظنَّ أنَّ لها شأنًا غير شأن ما ذاق.

وهذا هو الحُمقُ والشقاءُ والسفهُ.

ومن لم يَحْمِ نفسه ويُطَلِّقها ويُحَلِّئها[٨٤] عن الطعام والشراب والنساء في بعض ساعاتِ شهوته وقُدرته، كان أيسر ما يصيبه من وبال ذلك انقطاعُ تلك اللذَّات عنه

[٧٨] يكره وبابه ضرب.

[٧٩] يقال طمح ببصره إلى كذا: استشرف له.

[٨٠] يقال رغب في الشيء رغبة أراده كارتغب ورغب عنه لم يرده.

[٨١] كتب الشنقيطي بخطه إزاء هذا الموضع ما نصه:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يومًا أتعبتك المناظرُ

رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

[٨٢] أي لا يكفه.

[٨٣] من قولك شعفت بكذا: إذا غشي إلى قلبك، ووصل إلى شعفته.

[٨٤] يطردها ويمنعها.

بخمود نار شهوته وضُعْف حوامل[٨٥] جسده، وقلَّ من تجدُه إلا مخادِعًا لنفسه في أمر جسده عند الطعام والشراب والحِمْية[٨٦] والدواء، وفي أمر مُرُوءته عند الأهواء والشهوات، وفي أمر دِينه عند الرِّيبة والشبهة والطمع.

مطلبٌ «فيما يدعو إلى تعظيمك وتوقيرك ودوام مجدك وشرفك»

إنِ استطعتَ أن تضع نفسك دون غايتك في كلِّ مجلس ومُقام ومقالٍ ورأيٍ وفعلٍ فافعل؛ فإنَّ رفعَ الناس إيَّاك فوق المنزلة التي تحُط إليها نفسَك، وتقريبَهم إيَّاك إلى المجلس الذي تباعدْتَ منه، وتعظيمَهم من أمرك ما لم تعظِّم، وتزيينَهم من كلامك ورأيك وفعلك ما لم تُزيِّنْ هو الجمال.[٨٧]

لا يُعْجِبَنَّك العالِمُ ما لم يكن عالمًا بمواضع ما يَعلم، ولا العاملُ إذا جَهِل موضع ما يعمل.

وإن غُلبتَ على الكلام وقتًا فلا تُغلَبَنَّ على السكوت؛ فإنَّه لعله يكون أشدَّهما لك زينةً، وأجلبهما إليك للمودة، وأبقاهما للمهابة، وأنفاهما للحَسد.

مطلبٌ «في ذمِّ المِراء والتحذير منه»

احذر المِرَاء[٨٨] وأغْرِبْهُ،[٨٩] ولا يمنعنَّك حَذَر المِرَاء من حُسْنِ المناظرة والمجادلة.

واعلم أنَّ المماري هو الذي يريد أن يتعلَّم من صاحبه، ولا يرجو أن يتعلم منه صاحبه، فإن زعم زاعمٌ أنَّه مُجادلٌ في الباطل عن الحقِّ، فإن المُجَادِلَ، وإن كان ثابت

---

[٨٥] الأرجل، ومن القدم والذراع: عصبها، الواحدة حاملة.

[٨٦] بالكسر ما حمي من شيء.

[٨٧] الحسن في الخُلُق والخَلْق، وكتب الشنقيطي بخطه إزاء هذا من نسخته ما نصه:

كن كاملًا وارض بصف النعال	ولا تكن صدرًا بغير الكمال
فـإن تـصـدرت بـلا آلـة	صيرت ذاك الصدر صفَّ النعال

[٨٨] هو الجدال مما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب.

[٨٩] أي تباعده وأبعده.

الحُجَّة ظاهر البيِّنة حاضر الذهن، فإنَّه يخاصم إلى غير قاضٍ، وإنما قاضيه الذي لا يعدِلُ بالخصومة إلا إليه عدلُ صاحبه وعقلُه، فإن آنس أو رجا عند صاحبه عَدْلًا يقضي به على نفسه فقد أصاب وجه أمره، وإن تكلم على غير ذلك كان مماريًا.

وإنِ استطعت ألَّا تُخبرَ أخاك عن ذات[٩٠] نفسك بشيء إلا وأنت محتجنٌ[٩١] عنهَ بعض ذلك التماسًا لفضل الفعل على القول، واستعدادًا لتقصير فعل — إن قصَّر — فافعل.

واعلم أنَّ فضل الفعل على القول زِينةً، وفضلَ القول على الفعل هُجْنَةٌ،[٩٢] وأن إحكام هذه الخَلَّة من غرائب الخلال.

مطلبٌ «في أن لا راحة من كثرة الأعمال إلَّا بالفراغ منها»

إذا تراكمت عليك الأعمال فلا تلتمِس الرَّوْح[٩٣] في مدافعتها[٩٤] بالرَّوغان منها؛ فإنه لا راحةَ لك إلَّا في إصدارها،[٩٥] وإنَّ الصبر عليها هو الذي يخفِّفها عنك، والضَّجَرَ هو الذي يراكمها عليك.

فتعهَّدْ من ذلك في نفسك خَصلة قد رأيتُها تعتري بعض أصحاب الأعمال؛ وذلك أنَّ الرجل يكون في أمر من أمره، فَيرِدُ عليه شغلٌ آخرُ، أو يأتيه شاغلٌ من الناس يكره إتيانه، فيكدِّرُ ذلك بنفسه تكديرًا يُفسدُ ما كان فيه وما ورد عليه، حتى لا يُحكِمَ واحدًا منهما، فإذا ورد عليك مِثْلُ ذلك فليكن معك رأيك وعقلك اللذان بهما تختار الأمور، ثُمَّ اخترْ أَوْلَى الأمرين بشغلك، فاشتغل به حتى تفرُغ منه، ولا يعظُمَنَّ عليك فَوْتُ ما فات وتأخيرُ ما تأخَّر إذا أعملتَ الرأي مُعْمَلَهُ، وجعلتَ شغلك في حقه، واجعلْ لنفسك في كل شغلٍ غايةً ترجو القوة والتمام عليها.

---

[٩٠] ذات النفس: عبارة عما تخفيه وتضمره فيها.

[٩١] والمراد أنْ يحبس عنه بعض ذلك ويكتمه: من قولهم احتجن فلان المال: ضمه إليه واحتواه.

[٩٢] بالضم هي من الكلام ما يعيبه.

[٩٣] أي الراحة.

[٩٤] تمهلها إلى يوم بعد يوم.

[٩٥] الانصراف عنها والفراغ منها.

مطلبٌ «في ذمِّ تجاوز الحد»

اعلم أنك إنْ جاوزت الغاية في العبادة صِرْتَ إلى التقصير، وإن جاوزتها في حَمْل العلم لحقت بالجهَّال، وإن جاوزتها في تكلُّف رضى الناس والخفَّة معهم في حاجاتهم كنت المُحسَّر المُضيَّع.[٩٦]

واعلم أنَّ بعض العطيَّة لُؤْمٌ، وبعض السلاطة[٩٧] غمٌّ، وبعض البيان عِيٌّ، وبعض العلم جهلٌ. فإن استطعتَ ألَّا يكون عطاؤك جورًا، ولا بيانك هَذَرًا،[٩٨] ولا علمك وبالًا فافعل.

مطلبٌ «في الحرص على حفظ ما يروعك ويعجب غيرك»

اعلم أَنَّه ستمُرُّ عليك أحاديث تُعجِبك؛ إمَّا مليحةٌ وإمَّا رائعة.

فإذا أعجبتك كنت خليقًا أنْ تحفظها، فإن الحفظ موكَّلٌ بما مَلُحَ ورَاعَ، وستحرصُ على أنْ تَعْجَبَ منها الأقوام، فإن الحرص على ذلك التعجُّب من شأن الناس، وليس كل مُعْجِب لك مُعجِبًا لغيرك.

فإذا نشرتَ ذلك المرَّة والمرَّتين فلم تَرَه وَقَعَ من السامعين موقعَه منك فانزجر عن العودة، فإنَّ العَجَب من غير عجيب سُخْفٌ[٩٩] شديدٌ.

وقد رأينا من الناس مَن تعلَّق بالشيء ولا يقلع عنه وعن الحديث به، ولا يمنعه قِلَّة قبول أصحابه له من أنْ يعود إليه ثم يعود.

[٩٦] من التحسير وهو الإيقاع في الحسرة، والمضيع: يريد به أنْ يكون بدار ضياع وهلاك.
[٩٧] حدة اللسان وشدته.
[٩٨] الهذر سقط الكلام.
[٩٩] السخف: رقة العقل ونقصانه.

ثمَّ انظر الأخبار الرَّائعة فتحفَّظ[١٠٠] منها؛ فإن الإنسان من شأنه الحِرص على الإخبار، ولا سيما[١٠١] ما يَرتاع الناس له، فأكثرُ الناسِ مَن يُحدِّث بما سمع، ولا يبالي ممن سمع، وذلك مَفْسَدة للصدق ومَزْرَاة بالمروءة.

فإن استطعتَ ألَّا تخبر بشيءٍ إلَّا وأنت به مصدِّقٌ (لا يكون تصديقك إلَّا ببرهان) فافعل، ولا تقل كما يقول السفهاء: أُخْبِرُ بما سمعتُ.

فإن الكذب أكثرُ ما أنت سامِعٌ، وإنَّ السُّفهاء أكثر من هو قائلٌ، وإنَّك إنْ صِرتَ للأحاديث واعيًا وحاملًا، كان ما تَعِي وتحملُ عن العامَّة أكثرَ مما يَخترعُ المخترعُ بأضعافٍ.

مطلبٌ «في العفو عن الناس وعدم مجاراة السفيه»

انظر من صاحبتَ من الناس؛ من ذي فضلٍ عليك بسلطانٍ أو منزلةٍ، أو مَن دُون ذلك من الأَكْفاءِ والخُلَطاء والإخوان، فوَطِّنْ نَفْسَك في صُحبته على أنْ تقبل منه العفوَ، وتسخُو نفسُك عما اعتاص[١٠٢] عليك ممَّا قِبَلَه، غيرَ معاتبٍ ولا مُستبطِئٍ ولا مُستزيدٍ، فإنَّ المعاتبة مَقطَعةٌ للوُدِّ، وإنَّ الاستزادة من الجشع،[١٠٣] وإنَّ الرضا بالعفو والمسامحة في الخُلُق مُقَرِّبٌ لك كلَّ ما تَتُوق إليه نفسُك مع بقاء العِرض والمودَّة والمُرُوءة.

واعلم أنَّك ستُبْلَى من أقوامٍ بسَفَهٍ، وأنَّ سَفهَ السفيه سَيُطْلِعُ له منك حقدًا، فإن عارضته أو كافأتَه بالسَّفَه، فكأنَّك قد رَضِيتَ ما أتى به، فأحببتَ أنْ تحتذيَ على مثاله، فإنْ كان ذلك عندك مذمومًا، فحقِق ذمَّك إيَّاه بترك معارضته، فأمَّا أنْ تذمَّه وتمتثلَه،[١٠٤] فليس ذلك لك سَدادٌ.[١٠٥]

---

[١٠٠] من الحفظ وهو استظهار الشيء، واختار هذه الصيغة؛ لينبه على كثرة الحفظ من ذلك النوع، وتفسير هذه الكلمة بالاحتراس والتحرز ناب عن السياق.

[١٠١] هذا تركيب كالكلمة الواحدة، ويساق لترجيح ما بعده على ما قبله، فيكون كالمخرج عن مساواته إلى التفضيل.

[١٠٢] أي ما يصعب عليك استخراج معناه.

[١٠٣] أشد الحرص وأسوأه.

[١٠٤] يقال امتثل المثال: حذا حذوه وصنع مثيله.

[١٠٥] السداد: الصواب من القول والعمل.

مطلبٌ «لا تصاحب أحدًا من الناس إلَّا بالمروءة وإنْ كان ذا دالة عليك»

لا تصاحبنَّ أحدًا «وإنْ استأنستَ به أخًا ذا قرابة أو أخًا ذا مودَّة»، ولا والدًا ولا ولدًا إلَّا بمروءة، فإن كثيرًا من أهل المروءة قد يحملهم الاسترسال والتبذُّل على أنْ يصحبوا كثيرًا من الخلطاء بالإدلال والتهاون والتبذُّل.

ومن فَقَدَ من صاحبه صُحبة المروءة ووقارَها وجلالَها، أحدثَ ذلك له في قلبه رِقَّة شأن وسُخف منزلة.

ولا تلتمس غَلَبَةَ صاحبك والظَّفَرَ عليه عند كلِّ كلمةٍ ورأيٍ، ولا تجترئَنَّ على تقريعه بظَفَرك إذا استبان، وحُجَّتك عليه إذا وضحت.

فإن أقوامًا قد يحملهم حُبُّ الغلبة وسفَهُ الرأي في ذلك، على أنْ يتعقَّبوا[١٠٦] الكلمة بعدما تُنسى، فيلتمسوا فيها الحُجَّة، ثم يستطيلوا[١٠٧] بها على الأصحاب، وذلك ضَعْفٌ في العقل، ولُؤْم في الأخلاق.

مطلبٌ «في التحذير من أنْ تخدع بإكرام من يكرمك لجاه أو منزلة»

لا يُعجبنَّك إكرام مَن يكرمك لمنزلةٍ أو لسلطانٍ؛ فإن السلطان أوشكُ[١٠٨] أمور الدنيا زوالًا، ولا يعجبنَّك إكرام مَن يكرمك للمال؛ فإنه هو الذي يتلو السلطان في سرعة الزوال، ولا يُعجبنَّك إكرامهم إيَّاك للنسب؛ فإن الأنساب أقلُّ مناقب الخير غَناءً[١٠٩] عن أهلها في الدِّين والدنيا.

ولكنْ إذا أُكْرِمْتَ على دِين أو مُروءةٍ فذلك فليعجبك! فإنَّ المروءة لا تزايلك[١١٠] في الدنيا، وإنَّ الدين لا يزايلك في الآخرة.

---

[١٠٦] تعقبه: أخذه بذنب وتعقبه طلب عورته أو عثرته، فمعنى قوله: يتعقبوا الكلمة يعتدوها عليه ذنبًا وعورة.

[١٠٧] يقال استطال فلان على فلان: قهره وغلبه وتطاول عليه كذلك.

[١٠٨] من الوشك وهو الإسراع، يقال وشك الأمر: أسرع.

[١٠٩] يقال هذا الأمر أغنى غنى غناء فلان ناب عنه: وأجزأ مجزأه.

[١١٠] من التزايل وهو التفرق.

مطلبٌ «في ذمِّ الجبن والحرص»

اعلم أنَّ الجبن مقتلةٌ، وأنَّ الحرص مَحْرَمَةٌ.

فانظر فيما رأيتَ أو سمعت: أمَنْ قُتِل في القتال مُقبِلًا أكثرُ؟ أم من قُتِل مُدبِرًا؟ وانظر أمَن يطلب إليك بالإجمال والتكرُّم أحقُّ أنْ تسخُوَ نفسك له بطلبته؟ أم مَن يطلب إليك بالشَّرَه[١١١] والزيغ؟[١١٢]

واعلم أنَّه ليس كلُّ مَن كان لك فيه هوًى، فذَكرَهُ ذاكرٌ بسوءٍ وذكرتَه أنت بخير ينفعه ذلك، بل عسى أنْ يضرَّه.

فلا يستخفنَّك ذِكرُ أحدٍ من صديقك أو عدوك إلَّا في مواطن دفعٍ أو محاماة،[١١٣] فإنَّ صديقك إذا وثق بك في مواطن المحاماة، لم يحفِل[١١٤] بما تركتَ مما سوى ذلك، ولم يكن له عليك سبيلُ لائمةٍ.

وإنَّ من أحزم الرأي لك في أمر عدوِّك ألَّا تذكره إلَّا حيث تضرُّه، وألَّا تَعدَّ يسيرَ الضرر له ضررًا.

مطلبٌ «في الاحتراس مما يعتري الأخلاق الكريمة من الآفات»

اعلم أنَّ الرجل قد يكون حليمًا، فيحمله الحِرصُ على أنْ يقول الناس جليدٌ، والمخافة أنْ يقال مَهينٌ على أنْ يتكلَّف الجهل، وقد يكون الرجل زميتًا[١١٥] فيحمله الحرص على أنْ يقال لَسِنٌ،[١١٦] والمخافةُ من أنْ يقال عَيِيٌّ على أنْ يقول في غير موضعه فيكون هَذِرًا.[١١٧]

فاعرف هذا وأشباهَه، واحترس منه كلَّه.

---

[١١١] الشره: غلبة الحرص.

[١١٢] الجور عن الحق.

[١١٣] يقال حاميت عن فلان محاماة: منعت عنه ودافعت.

[١١٤] لم يبالِ نقول ما حفلت بكذا، وما احتفلت به، ما باليت.

[١١٥] الزميت: الوقور، والزميت: الكثير الوقار.

[١١٦] أي فصيح.

[١١٧] كيثر الكلام في الخطأ والباطل.

مطلبٌ «في مخالفة ما يكون أقرب إلى هواك»

إذا بَدَهَك[١١٨] أمران لا تدري أيُّهما أصوبُ؛ فانظر أيهما أقربُ إلى هواك فخالفْهُ، فإنَّ أكثرَ الصواب في خلاف الهوى.

وليجتمعْ في قلبك الافتقارُ إلى الناس والاستغناءُ عنهم! وليكن افتقارُك إليهم في لين كلمتك لهم، وحُسن بِشرك بهم! وليكن استغناؤك عنهم في نزاهة عِرْضِك وبقاء عِزِّك.

مطلبٌ «في آداب المجالسة»

لا تُجالسنَّ امرأ بغير طريقته، فإنَّك إنْ أردتَ لِقاء الجاهل بالعلم، والجافي[١١٩] بالفقه، والعييِّ بالبيان لم تزدْ على أنْ تُضيِّعَ عِلمك، وتُؤْذي جليسك بحَملك عليه ثِقْلَ ما لا يعرفُ، وغمِّك إياه بمثل ما يغتمُّ به الرجُل الفصيحُ من مخاطبة الأعجمي[١٢٠] الذي لا يفقه عنه.

واعلم أنَّه ليس من علمٍ تذكرُهُ عند غير أهله إلَّا عابوه، ونصبوا[١٢١] له ونقضوه عليك، وحَرَصوا على أنْ يجعلوه جهلًا، حتى إنَّ كثيرًا من اللهو واللعب الذي هو أخفُّ الأشياء على الناس لَيَحْضُره من لا يعرفُهُ، فيثقُلُ عليه ويغتم به.

ولْيعلم صاحبُك أنك تُشْفق[١٢٢] عليه وعلى أصحابه، وإيَّاك إنْ عاشرك امرؤٌ أو رافقك، أنْ يَرَى منك الولوعَ بأحدٍ من أصحابه وإخوانه وأخدانه، فإنَّ ذلك يأخُذُ من أعِنَّة القلوب مأخذًا، وإنَّ لُطْفَك بصاحب صاحبِك أحسنُ عنده موقعًا من لطفكَ به في نفسه.

واتَّقِ الفرح عند المحزون، واعلم أنه يحقدُ على المُنطلِق[١٢٣] ويشكر للمُكتئِب.

اعلم أنَّك ستسمع من جُلسائك الرأيَ، والحديثَ تُنكرُهُ وتستجفيه وتستشنعه من المتحدِّث به عن نفسه أو غيره، فلا يكوننَّ منك التكذيب، ولا التسخيف لشيء مما يأتي

---

[١١٨] يقال بدهه بكذا: استقبله به أو بدأه به وبدهه أمرٌ: فجأه.

[١١٩] من الجفاء وهو الغلظة والفظاظة، والفقه: العلم بالشيء والفهم له.

[١٢٠] الأعجمي والأعجم: الذي في لسانه عجمة ولَكْنة.

[١٢١] أي عادوه.

[١٢٢] من الشفقة، وهي حرص الناصح على صلاح المنصوح.

[١٢٣] من انطلاق الوجه وهو انبساطه بالبِشر والسرور.

به جليسك، ولا يُجرِّئنَّك على ذلك أنْ تقول: إنما حدثَ عن غيره، فإنَّ كلَّ مردودٍ عليه سيمتعِضُ[١٢٤] من الردِّ، وإنْ كان في القوم من تكرهُ أنْ يستقرَّ في قلبه ذلك القول، لخطأ تخاف أنْ يعقد عليه، أو مضرَّة تخشاها على أحدٍ، فإنَّك قادرٌ على أنْ تنقُضَ ذلك في سَتر، فيكون ذلك أيسرَ للنقض وأبعد للبعضة.

ثم اعلم أنَّ البِغْضَةَ خَوفٌ، وأنَّ المودَّةَ أمنٌ، فاستكثر من المودَّة صامتًا، فإنَّ الصمت سيدعوها إليك، وإذا ناطقتَ فناطِقْ بالحُسنى، فإنَّ المنطِقَ الحَسَنَ يَزيدُ في ودِّ الصديق، ويستلُّ سخيمة الوغر.[١٢٥]

ولتعلم أنَّ خَفْضَ الصوت، وسكونَ الريح، ومشيَ القَصْد[١٢٦] من دواعي المودة، إذا لم يخالط ذلك بأْوٌ[١٢٧] ولا عُجْبٌ، أمَّا العُجْب فهو من دواعي المقتِ والشَّنَآن.[١٢٨]

مطلبٌ «في بيان أنَّ المستشار ليس بضامن وجه الصواب»

اعلم أنَّ المستشار ليس بكفيل،[١٢٩] وأنَّ الرأي ليس بمضمونٍ، بل الرأيُ كلُّه غَرَرٌ؛[١٣٠] لأن أمور الدنيا ليس شيءٌ منها بثقةٍ؛ ولأنه ليس من أمرها شيءٌ يدركه الحازم إلَّا وقد يُدركه العاجز، بل ربما أعيا الحَزَمَةَ ما أمكَنَ العَجَزَةَ؛ فإذا أشار عليك صاحبُك برأي، ثم لم تجد عاقبتَه على ما كنتَ تأمُلُ، فلا تجعلْ ذلك عليه دَيْنًا، ولا تُلزِمْهُ لَوْمًا وعَذْلًا؛ بأنْ تقول: أنت فعلت هذا بي، وأنت أمرتني، ولولا أنت لم أفعل، ولا جَرَمَ لا أطيعُك في شيءٍ بعدها، فإن هذا كله ضجرٌ ولؤمٌ وخِفَّةٌ.

فإن كنتَ أنت المشيرَ، فعَمِل برأيك أو تركه، فبدا صوابُك فلا تَمْنُنْ به، ولا تُكثرَنَّ ذِكرهُ إنْ كان فيه نجاح، ولا تَلُمْهُ عليه إنْ كان قد استبان في تركه ضرر؛ بأن تقول: ألم أقل لك: افعل هذا. فإنَّ هذا مُجانبٌ لأدب الحكماء.

---

[١٢٤] يغضب ويشق عليه.

[١٢٥] أي الحقد والضغن والعداوة.

[١٢٦] القصد ضد الإفراط.

[١٢٧] البأو هو الفخر والكبر والتيه.

[١٢٨] البغض.

[١٢٩] الكفيل: الضامن، يريد أنَّ الذي يشير عليك لا يضمن إنجاح مشورته.

[١٣٠] أي على غير عهدة ولا ثقة.

مطلبٌ «في الحرص على الاستماع»

تعلَّمْ حُسْنَ الاستماع كما تتعلمُ حسن الكلام، ومن حسن الاستماع إمهالُ المتكلِّم حتى ينقضي حديثُه، وقلَّةُ التلفُّتِ إلى الجواب، والإقبالُ بالوجهِ والنظرِ إلى المتكلمِ، والوعيُ[١٣١] لما يقول.

واعلم — فيما تُكلِّمُ به صاحبك — أنَّ مما يُهجِّنُ صواب ما يأتي به، ويذهب بطعمه[١٣٢] وبهجته، ويُزْرِي[١٣٣] به في قبوله، عَجَلَتُك بذلك، وقطعُك حديثَ الرجُل قبل أنْ يُفضِي إليك بذات نفسه.

مطلبٌ «في أن الزهد في الدنيا لا يكون مع تعذرها عليك»

إن رأيتَ نفسك تصاغَرَت إليها الدنيا، أو دعتْكَ إلى الزهادة فيها على حال تعذُّر من الدنيا عليك؛ فلا يغرَّنَّكَ ذلك من نفسك على تلك الحال، فإنها ليست بزهادة، ولكنَّها ضجرٌ واستخذاء[١٣٤] وتغيُّر نفس عند ما أعجزك من الدنيا وغضب منك عليها مما الْتَوى[١٣٥] عليك منها، ولو تَمَّمْتَ على رفضها، وأمسكت عن طلبها، أَوْشَكْت أن ترى من نفسك من الضَّجَر والجزع أشد من ضجرك الأوَّل بأضعافٍ، ولكن إذا دعتك نفسُك إلى رفض الدنيا — وهي مقبلة عليك — فأسرع إلى إجابتها.

مطلبٌ «في التحذير من الدفاع عمَّن ذُكر بنقيصة»

اعرف عوراتك، إيَّاك أن تُعَرِّض بأحدٍ فيما ضارعها،[١٣٦] وإذا ذكرتْ من أحدٍ خليقةٌ، فلا تُناضل عنه مُناضلة المُدافع عن نفسه، المُصغِّرِ لِمَا يعيبُ الناسُ منه؛ فَتُتَّهم بمثلها، ولا تُلحَّ كُلَّ الإلحاح، وليكُنْ ما كان منك في غير اختلاط، فإنَّ الاختلاط من محقِّقَات الرِّيَبِ.

---

[١٣١] وعي الحديث: حفظه وتدبره.

[١٣٢] طعم الشيء: حلاوته أو مرارته والمراد هنا طلاوته وبهاؤه في الأصل.

[١٣٣] يقال أزرى به الخلق: عابه.

[١٣٤] الاستكانة والخضوع.

[١٣٥] صعب عليك إليه الوصول.

[١٣٦] شابهها وماثلها، وهو المبالغة في الغضب.

مطلبٌ «في التحذير مما يجرح قلب الجليس من ألفاظ الذمِّ والتشهير»

إذا كنتَ في جماعةِ قومٍ أبدًا فلا تَعُمَّنَّ جيلًا من الناس أو أمَّة من الأمم بشَتْم ولا ذَمٍّ، فإنَّك لا تدري: لعلك تتناول بعض أعراض جُلسائك مُخطِئًا، فلا تأمَن مُكافأتَهُم، أو مُتعمِّدًا فتُنسَب إلى السَّفَه، ولا تَذُمَّنَّ مع ذلك اسمًا من أسماء الرجال أو النساء بأن تقول: إنَّ هذا لقبيحٌ من الأسماء، فإنَّك لا تدري لعلَّ ذلك غير موافق لبعض جُلسائك، ولعله يكون بعض أسماء الأهلين الحُرُم، ولا تستصغرنَّ من هذا شيئًا، فكلُّ ذلك يجرحُ في القلب، وجُرْحُ اللسان أَشَدُّ من جرح اليدِ.

ومن الأخلاق السيئة على كل حال مُغَالبةُ الرجل على كلامه والاعتراضُ فيه، والقطعُ للحديث.

ومن الأخلاق التي أنت جدير بتركها — إذا حدَّث الرجلُ حديثًا تعرفه — ألا تسابقَه إليه وتفتحه عليه وتشاركه فيه، حتى كأنَّك تُظهر للناس أنك تُريد أنْ يعلموا أنَّك تعلمُ مِثْلَ الذي يعلم، وما عليك أنْ تهنئه بذلك وتفْرِدَهُ به.

وهذا الباب من أبواب البخل، وأبوابُهُ الغامضة كثيرةٌ.

إذا كنتَ في قوم ليسوا بُلغاء ولا فُصحاء فدَعِ التطاول عليهم بالبلاغة والفصاحة.

واعلم أنَّ بعضَ شدَّة الحذرِ عونٌ عليك في ما تحذرُ، وأنَّ بعض شدَّة الاتِّقاء مِمَّا يدعو إليك ما تَتقي.

واعلم أنَّ الناس يخدعون أنفسهم بالتعريض والتوقيع بالرجال في التماس مثَالبهم ومَساويهم ونقيصتهم، وكلُّ ذلك أبينُ عند سامعيه من وَضَح[١٣٧] الصُّبْحِ، فلا تكوننَّ من ذلك في غرور، ولا تجعلنَّ نفسك من أهله.

اعلم أنَّ مِن تنكُّب[١٣٨] الأمور ما يُسمَّى حَذَرًا،[١٣٩] ومنه ما يُسمَّى خَوَرًا،[١٤٠] فإن استطعت أن يكون لحينك من الأمر قبل مواقعتك إياه فافعل؛ فإن هذا الحذرُ، ولا تنغمس فيه ثم تتهيَّبهُ؛ فإن هذا هو الخَوَرُ، فإنَّ الحكيم لا يخوض نهرًا حتى يعلم مقدار غوره.

---

[١٣٧] الوضَح محركًا: البياض والضوء.

[١٣٨] التباعد والعدول عنها.

[١٣٩] الحذر والاحتراز.

[١٤٠] الخور والضعف.

قد رأينا من سوء المجالسة أنَّ الرجل تثقُلُ عليه النعمة يراها بصاحبه، فيكون ما يشتفي بصاحبه — في تصغير أمره وتكدير النعمة عليه — أن يذكر الزوال والفناء والدوَل، كأنه واعظ وقاصٌّ، فلا يخفى ذلك على من يُعنَى به ولا غيره، ولا يُنَزَّل قولُهُ بمنزلة الموعظة والإبلاغ، ولكن بمنزلة الضَّجَر من النعمة — إذا رآها لغيره — والاغتمامِ بها والاستراحةِ إلى غير رَوْح.

وإني مخبرك عن صاحبٍ لي، كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأسُ ما أعظمَهُ في عيني صِغَرَ الدنيا في عينه؛ كان خارجًا من سلطان بطنه؛ فلا يتشهَّى ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وَجَدَ، وكان خارجًا من سلطان فَرْجِهِ؛ فلا يدعو إليه ريبة، ولا يستخفُّ له رأيًا ولا بدنًا، وكان خارجًا من سلطان لسانه؛ فلا يقول ما لا يعلم ولا ينازع فيما يعلم، وكان خارجًا من سلطان الجهالة؛ فلا يُقدِمُ أبدًا إلا على ثقةٍ بمنفعةٍ.

كان أكثَرَ دهره صامتًا فإذا نطق بَذَّ الناطقين.

كان يُرَى متضاعفًا مستضْعَفًا، فإذا جاء الجِدُّ فهو الليث عاديًا.

كان لا يدخُل في دعوى، ولا يشترك في مِراء، ولا يُدْلي بحُجَّة حتى يَرى قاضيًا عَدْلًا وشُهودًا عُدُولًا.

وكان لا يلوم أحدًا على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره.

وكان لا يشكو وجعًا إلَّا إلى مَن يرجو عنده البُرْء.

وكان لا يستشير صاحبًا إلى من يرجو عنده النصيحة.

وكان لا يتبرَّم ولا يتسخَّط ولا يتشهَّى ولا يتشكَّى.

وكان لا ينقمُ على الوليِّ، ولا يَغْفُلُ عن العدُوِّ، ولا يخصُّ نفسَه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته.

فعليك بهذه الأخلاق إنْ أطقتَ — ولن تطيق — ولكنَّ أخذَ القليل خير من ترك الجميع.

واعلم أنَّ خيْر طبقاتِ أهل الدنيا طبقةٌ أصِفُها لك: مَنْ لَمْ ترتفِعْ عن الوضيعِ ولم تتَّضِع عن الرفيع.


هنداوي